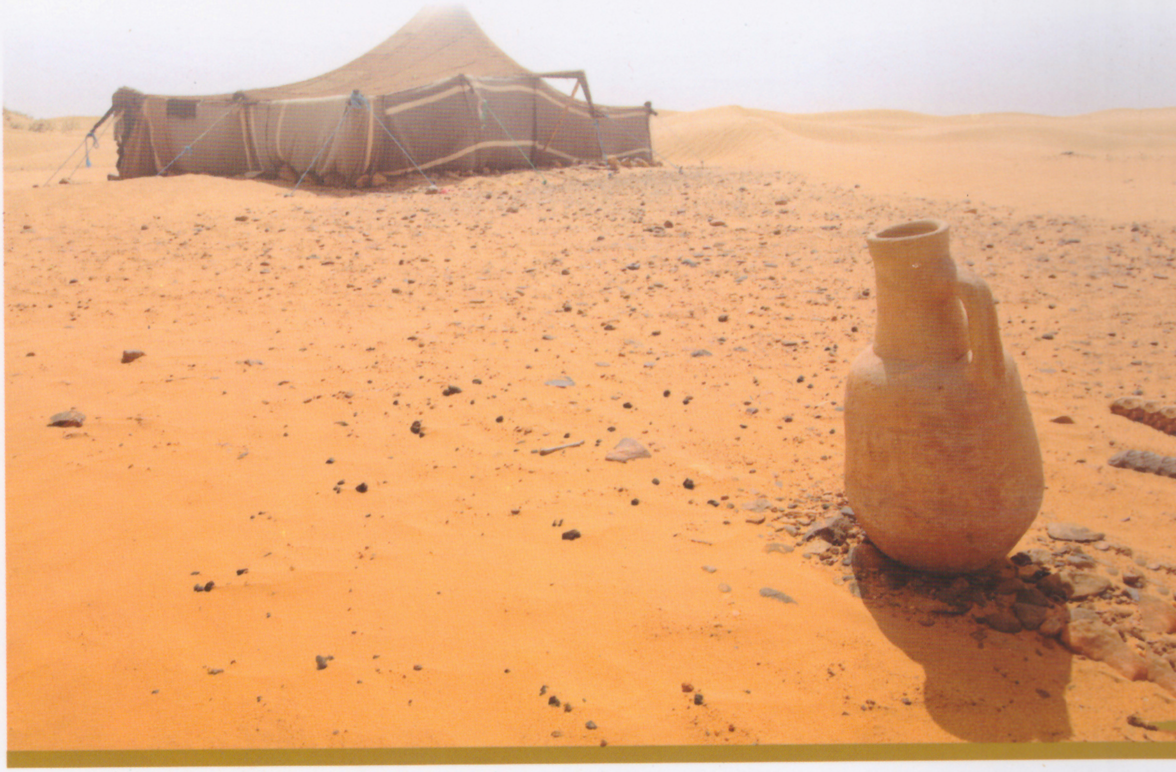
موسوعة التراث الشعبي في النقب

من كل وادٍ عصا

صالح زيادنة



أ. دار الهدى ع. زحالقة

صالح زيادنة

من كل وادٍ عصا

« مقالات في التراث الشعبي والنقد الاجتماعي »

- نيسان ٢٠١٢م -

من كل وادٍ عصا

«مقالات في التراث الشعبي والنقد الاجتماعي»

صالح زيادنة

الطبعة الأولى

نيسان ٢٠١٢م – جمادى الأولى ١٤٣٣ هـ

– طبع هذا الكتاب بمناسبة أسبوع الثقافة الأول في المكتبة العامة في رهط. –

صفّ وتحرير وغلاف: صالح زيادنة

الإهــــــداء

❀ - إلى الأهل في منطقة النقب الأشمّ.

❀ - إلى أبنائي وبناتي وأفراد أسرتي.

❀ - إلى الأستاذ الشاعر سهيل عيساوي.

❀ - إلى الزميل الكاتب موسى الحجوج.

❀ - إلى السيد إبراهيم أبو شارب مدير المركز الجماهيري في رهط.

❀ - إلى السيد صالح أبو جعفر أمين المكتبة العامة في رهط.

❀ - إلى كلّ هؤلاء، وإليك أنت عزيزي القارئ أهدي هذا الكتاب.

صالح زيادنة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على المبعوث رحمةً للعالمين، النبيّ العربيّ الصادق الأمين، وعلى أصحابه الغُرّ الميامين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

هذا كتابٌ جمعتُ فيه مقالاتٍ عديدة سبق أن نشرتها في الصحف المحلية على مدار سنوات طويلة، وكان بعضُها في توثيق التراث، وبعضها الآخر في نقدٍ لبعض الظواهر الاجتماعية، ومقالات أخرى مما وعته الذاكرة من أحداثٍ وذكريات، فجاءت مادة الكتاب مختلفةً متنوعة، ثم رأيتُ أن أجمعَها وأصدرها في كتابٍ يجمع شتاتها ويلمّ شاردها ويجعل الوصول إليها سهلاً ميسوراً، رغم معرفتي أننا نعيش في زمنٍ أحجم فيه الناسُ عن المطالعة، وعزفوا فيه عن اقتناء الكتب، وأصبح الكاتب يكتب للتاريخ ولا يجد من يثمّن عمله أو يقدّر مجهوده، ولكن من يؤمن برسالته فعليه أن يصبر ويتحدّى الصعاب، وهذا ما نفعله ونقوم به خدمة لأهلنا وأبنائنا وللأجيال التي نتمنى لها أن تسير على خطى الخير والرشاد.

ولا شكّ أن رحلتي مع هذا الكتاب كانت طويلةً ممتعة، أمضيتها في البحث والتنقيب عن كنوز تراثنا الشعبي، من عاداتٍ وتقاليد أصيلة، ومن عباراتٍ ومصطلحاتٍ ثمينة، ودوّنتها تدوين من يعرف قيمتها، وشرحتها شرح من عاشها وعرف مكنوناتها ومعانيها، فجاء الكتابُ مكملاً لسلسلةٍ من كتبنا الأخرى في مجال توثيق التراث الشعبي لمنطقة النقب، والتي بدأناها منذ عشرات السنين وما زلنا نجمع ونوثّقُ دون مللٍ أو كلل.

أما مادة الكتاب فقد رتبتُها وبوّبتها في ثلاثة أبوابٍ رئيسية، كلّ بابٍ منها يضمّ مقالات تتبع له بشكلٍ أو بآخر، وهي كالآتي: الباب الأول بعنوان من دفتر الذكريات، والثاني من كنوز التراث الشعبي، والثالث والأخير في النقد الاجتماعي.

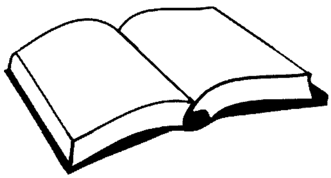
وختاماً أرجو أن يكون في هذا العمل المتواضع ما ينفع أهلنا وأمتنا، وما ينير الطريق أمام أبنائنا وبناتنا، ليهتدوا إلى كنوزٍ ثمينة من تراث أهلهم الخالد، فيتمسكوا بقيمهم وفضائلهم ودينهم القويم، وينبذوا كلّ دخيلٍ مقيت لا يمتّ لعاداتنا بصلة ولا يربطه بديننا رابط، ونحافظ من خلاله على هويتنا وقوميتنا وعروبتنا وديننا الإسلامي الحنيف.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

صالح زيادنة

رهط في: الاثنين، ٠٢ نيسان، ٢٠١٢

من دفتر الذكريات



عودي إليّ دموعي..
فإني ضللتُ طريقي
وتهتُ ما بين أطلال حزني
وبين بقايا حريقي
عودي لعلّي أرى
ما بين ديجور روحي
بصيصَ الشروقِ

أحداثٌ تَمُرُّ في حياة الإنسان تصبحُ مع مرور الزمن ذكرياتٍ من الماضي، وقد يكونُ في هذه الذكريات ما يسرُّ، وقد يكونُ فيها ما يؤلم، ولكنَّ الزمنَ كفيلٌ بأن يجعل الإنسانَ يعيشُ معها حلوةً كانت أو مُرّة. وقد سجَّلتُ بعض هذه الأحداث التي مررتُ بها، والتي ما زال بعضها عالقاً في ذهني، ومحفوراً على جدران ذاكرتي، وها أنا أضعها بين أيديكم كما هي:

* كلّ حرفٍ بعصا *

في عام ١٩٦٤ ذهبتُ للمدرسة للمرة الأولى، ولم أذهب في الأول من أيلول حيث تفتح المدارسُ أبوابها في بداية العام الدراسيّ، بل ذهب ابنُ عمٍّ لي، أما أنا فذهبتُ في اليوم التالي لأن أبي لم يكن قد اشترى لي بعد ملابس مدرسية أذهب بها للمدرسة في ذلك اليوم.

وروى لي ابن عمّي بعد عودته من المدرسة بأنَّ الأستاذ كتب لهم ٢٩ حرفاً وطلب منهم أن يحفظوها في الفرصة، وبما أنه لم يستطع حفظها خلال تلك الفترة القصيرة، وليست له معرفة سابقة بها فقد ضربه المعلم ٢٩ عصا، بعدد الحروف الهجائية لأنهم كانوا يعلموننا اللام ألف كأنها حرفٌ مستقل، وفي اليوم التالي ذهبتُ للمدرسة ولكنني كنتُ خائفاً جداً فأنا لا أعرف الحروف ولم أتعلمها من قبل، فكنتُ على يقين بأنني سألاقي من العقاب ما لاقاه ابن عمّي، ولكن شاءت الظروف أن يمرّ اليوم دون أن يضربني المعلم، وقد تكون تلك العصيّ خفيفةً للتخويف من أجل الحفظ، ولكنني على كلّ حال سلمتُ منها، وتمرّ الأيام وقبل

عدّة أعوام أقرأ في الصحف المحليّة أن ذلك المعلم قد انتقل إلى جوار ربه، أما ابن عمّي فقد سبقه بسنوات، فرحمة الله على الأثنين وغفر لهما وأسكنهما فسيح جناته.

* * *

* يبكي على عصفور الدوري *

كانت المدرسةُ التي تعلمنا فيها في بداية الأمر عبارة عن مبنى قديمٍ واحد، ثم أضافوا إليها مبنىً آخر يتسع لعدة صفوف، وكان للمبنى الجديد نوافذ زجاجية كبيرة وبابه يفتح من جهة الشرق، ونقلوا صفنا لهذا المبنى فسررنا كثيراً لأنه أوسع وأكبر ولأنه جديد أيضاً، وكان يعلمنا معلمٌ من الشمال يدعى حسني مواسي، وكان هذا المعلم على درجةٍ كبيرةٍ من السماحة والطيبة، وكنا نحبّه ونرتاح لدروسه، وحدث ذات يوم أن دخل عصفورٌ من عصافير الدوري في غرفة الصف، ولكنه عندما رأى الغرفة مليئة بالطلاب اتجه نحو النافذة الزجاجية الكبيرة وهو يظنها مفتوحةً فارتطم رأسه بها ووقع على الأرض وقد فارق الحياة على الفور، أمسك الأستاذ حسني ذلك العصفور الميت بين يديه وقد تدلى رأسه، وصار يقلبه وينظر إليه ويبكي، وكان غريباً علينا أن نرى منظر رجلٍ كبيرٍ وهو يبكي، فكيف إذا كان أستاذنا، ورغم أننا كنا صغاراً إلا أننا فهمنا أن أستاذنا توفيت له ابنةٌ في ذلك الوقت، وعندما مات العصفور بين يديه تذكّرها وبكى بمرارة، وما زال ذلك المشهد حاضراً في شريط ذكرياتي حتى اليوم، فرحمة الله على أستاذنا وعلى ابنته التي توفيت قبله.

* * *

كنتُ في الصف الثاني عندما رحلَ والدي إلى مدينة الرملة، وكانت المدينة صغيرة، وحولها مزارع كبيرة من أشجار الزيتون التي كانت للعرب وهُجِّرَ أصحابها في زمن الحرب، وبنى أبي بيته بين أشجار الزيتون وكان بيتاً من الشَّعْر، وذهب في ذلك اليوم لسوق المدينة لكي يشتري أغراضاً ولوازم للبيت وأخذني معه، وفي طريق عودتنا مرّ بنا فتى يركب دراجة هوائية، وعندما التفت إلينا قلت لأبي: أنظر يا أبي إنه أحول، وكان به حَوَلٌ خفيف فسمع ما قلته ولم يرقه ما سمع، ولكنني لم أكن لأخشاه لأنني برفقة أبي، وفي اليوم التالي أخذني أبي لمدرسة "الجواريش" وسجّلني هناك وعاد أدراجه، وما إن خرجنا للفرصة حتى لمحني ذلك الفتى فجاء مسرعاً نحوي، وكان يكبرني بسنوات فأمسك بقميصي وهزّني بقوة وقال لي: لماذا قلت عني ما قلت بالأمس؟، حاولت الإنكار ولكنه عندما رآني غريباً قال لي بتهكم: "لا تعيدها مرة أخرى هل فهمت"، فهززتُ رأسي بالإيجاب، ثم تركني وذهب، فنفضتُ ريشي كطيرٍ يُفلت من بازيّ، ولم أكن أتصوّر بأنني سأخرج منها بهذه السهولة، ولكن يبدو أن الحظ ابتسم لي في ذلك اليوم، وأذكر أنني لم أكن أقصد الإساءة لذلك الفتى، ولكن لغة الصحراء رغم بساطتها وعفويتها وصدق معانيها إلا أن البعض يرى فيها جفاءً وغِلظة نابعة من بيئة أهلها الصحراوية الجافة.

* * *

* درس الانجليزي *

كان أبي يدللني كثيراً، وربما كان يُفرط في ذلك بعض الشيء، وكثيراً ما كان يصطحبني معه لسوق الخميس فأجدها فرصةً سانحة لأغيب عن المدرسة، ولكن معلم اللغة الانجليزية لم يكن يعجبه غيابي، وكنا نتعلم الانجليزية في كتابٍ اسمه «تعلَّم الانجليزية»، وكان له قاموس صغير فيه المفردات الجديدة لكلّ درسٍ ودرس. وفي أحد الأيام التي غبتُ فيها تعلّم طلاب صفنا درساً جديداً، وشرحه المعلم لهم مع مفرداته الجديدة، وأخبرني ابن عمّي أن المعلم سأل عني، ولما كنتُ أعرف شراسة ذلك الأستاذ قلت في نفسي بأنه سيبحث عن أي سببٍ ليعاقبني على غيابي، فما كان مني إلا أن قرأتُ الدرس عدة مرات حتى حفظته جيداً، ثم حفظتُ المفردات الجديدة عن ظهر قلب، ولما عدنا للمدرسة وفي الحصة التي يعلمنا فيها ذلك المعلم، أخذ يسأل الطلاب في بداية الأمر ويتجاهلني، ثم تقدّم عدة خطوات ووقف بجانبي ومعه ذلك القاموس الصغير، وأخذ يسألني عن كلّ كلمةٍ وكلمة، وكنتُ أجيبه عن كلّ واحدةٍ منها إجابةً صحيحة، وقد سألني عن جميع المفردات الجديدة ولم يترك واحدة منها وكانت أكثر من ٣٠ كلمة، ولما أعيته الحيلة ولم يجد سبباً يعاقبني من أجله التفت إليّ وقال بحنق: أتدري لو غلطت في كلمة واحدة ماذا كنت سأفعل بك، قلت أعرف ومن أجل ذلك حفظت الدرس جيداً، فتركني وذهب، فتنفستُ الصعداء وأفلتُّ بريشي مرةً أخرى من عقابٍ كان شبه مؤكد.

* * *

لم يكن أهلنا من المتعلمين بل كانوا من عامة النـاس، وكنـا نـذهب للمدرسـة سيراً على الأقدام مسافة ٣ كيلومترات ذهابـاً ومثلـها إيابـاً، وكنـا في الطريـق نطلـبُ مـن الطلاب الذين يكبروننا سـناً أن يعلمونـا سـورة الفاتحـة وسـورة الإخـلاص وبعـض السور القصيرة الأخـرى الـتي كنـا نتعلمهـا في دروس الـدين في ذلـك الوقـت، وقـد اتسعتْ صدورهم فعلمونا إياها حتى حفظناها عن ظهر قلب، وكذلك الحال بالنسبة للدروس الأخرى، ولولا هؤلاء الطلاب للاقينا من العذاب والعَنَـت الـشيءَ الكـثير، فأين نحن من طلابنا اليوم والذين تتوفر لديهم كـلّ الأشـياء الـتي كانـت تنقـصنا في السابق، وكلّ الأشياء التي لم نكن نحلم بها من قبل.

* * *

* الأستاذ نظير *

كان الأستاذ نظير في العقد الخامس مـن عمـره، وكـان رفيعـاً ناحـل الجـسم، وكـان يُعلّمنا النشيد في مدرسة "الجواريش" الابتدائية في الرملـة، وكانـت تلـك الأناشـيد التي يعلمنا إياها من كتابٍ لشاعر يُدعى سليم شعشوع، وعندما ذكـرتُ اسمـه لأبـي قال إنه يعمل كاتباً في المحكمـة الـشرعية في يافـا، وجـاءت بعـده معلمـةٌ لا أذكـر اسمها، وكان صوتها عذباً رخيماً فعلمتنا أنشودةً ما زلت أذكر بعضها، ومنها:

قُمْ بنا نمشي سـوى .... قُـمْ إلـى شَمّ الهـوا
إنَّـــه خيـــرُ دوا .... قُـمْ بنا نمشي سوى

طـــابتي نأخـــذها .... معنـــا نلـــهو بهـــا
في الهـــوا نقـــذفها .... قُـمْ بنا نمشي سوى
بعـد حـين سـنعود بنـــشاطٍ كالأســـود
قم بنا طال القعـود قُـمْ بنا نمشي سوى

وهكذا تقدّم بنا العمر، وأبعد بنا نَوْءُ الزمان وأصبحت تلك الأحـداث الـتي مررنـا بها صفحاتٍ مطوية في سجّل الذكريات، نقفُ عندها مرةً للذكرى، وللعِـبرة مـرات أخرى.

* * *

رهط في: ٠٣ أيار، ٢٠١٠

* لدغة العقرب *

كان أبي يُدللني كثيراً، وكان يُعلِّمني الرسمَ وكتابة الحروف ويشتري لي الأقلام والدفاتر، وكان يرسم لي طائرةً وبعضَ العصافير وسيفاً مصيوغاً، هكذا كان يُسميه، وكان يضيف إلى السيف صورة عَجَلٍ صغير في أسفله، ويقول لي: كان بعض الناس يَجُرُّون سيوفهم جَرّاً.

كنتُ أُحبّ الرسم وأحبّ الكتابة ولم أكن أعرف يومها بأنها ستصبح هاجسي ومرضي المزمن، وكثيراً ما كانت تضيعُ أوراقي أو تنتهي أقلامي، وكنت أستعيض عنها بقطعة فحمٍ من الموقد، وكنت آخذ قطعةَ الفحم وأخرج أركض وأبحث عن ورقةٍ من الكرتون تكون قد طارت مع الريح بعد أن أفرغها الناسُ من محتوياتها، وكانت قِطَع الكرتون المتطاير هي دفاتري، وبقايا الفحم المترسِّب في الموقد هي أقلامي.

وذات يوم تناولتُ قطعةَ فحمٍ من الموقد وذهبت أركض، وابتعدت عن البيت حيث وجدتُ قطعةً كبيرة من ورق الكرتون قد ألقت بها الريحُ فوق عيدان القشّ اليابس التي تخلّفت وراء ماكِنَة الحصاد، وكان الوقتُ صيفاً، والزرع قد حُصد، والقشّ والعشب اليابس يملآن المكان.

أزحتُ ورقة الكرتون قليلاً وأخذت أرسمُ عليها أشكالاً وطيوراً مختلفة، ولكن فرحتي لم تَتِمّ فقد شعرتُ بوخزةٍ قويةٍ في قدمي، نظرتُ إلى الأرض والى المكان الذي وُخِزْتُ منه فرأيت عقرباً كبيرةً سوداء اللون.

ازداد أَلَمِي وانتشر السمُّ في جسدي وبدأتُ أقفز على رِجْلٍ واحدة بعد أن ازداد خوفي

من رؤيتي لتلك العقرب الكبيرة المفزعة.

أخذت أقفز على رِجْلٍ واحدة واتجه نحو البيت وأرفع صوتي بالصراخ لعلّ أمي تسمعني، وسمعتْ أمي صراخي فهبّت لنجدتي، وأخذت تسألني بخوفٍ وقلق: ما الذي جرى لك يا ولد؟ ما الذي جرى لك. أجبتها: العقرب يا أمي، لدغتني عقرب سوداء كبيرة. أين لدغتك؟ سألتْ أمي بلهفةٍ شديدة. هنا في رِجْلي وأشرت بيدي نحو رِجْلي، وبسرعة شديدة جاءت أمي بشيءٍ من السكَّر ووضعته فوق مكان اللدغة وبلّلت المكان بريقها حتى تمسك ذرات السكر، وقالت: سيزول الشرّ عنك إن شاء الله، سيزول الشرّ.

وسألت مستفسراً: وهل السكّر يمتصّ السمَّ يا أمي؟ نعم يمتصّه، وبعد قليل ستعود إليك عافيتك، أجابت أمي مُطَمْئنة.

نمتُ من شدة الألم وساقي ممدودة ومكان اللدغة من قدمي مغطّى بطبقةٍ من السكَّر، وبعد أن استيقظت كنتُ لا أشعر بأيّ ألم، فناديت أمي فَرِحَاً وقلتُ لها: أنا بخير يا أمي، ولا شيء يؤلمني، فأجابت: أعرف ذلك يا ابني.. ألم أقل لك بأن السكّر يمتصّ السم.

فتمتمتُ موافقاً: صدقتِ يا أمي.. حقاً انه يمتصّ السمّ.

* * *

* ابن يشجّ رأسَ أمه *

جاءت يوماً خالةٌ لأمّي وقد تشاجرت مع ابنها فضربها وشجَّ رأسها، ولما كان بيتنا أقرب البيوت إليها فقد لجأت إليه، وكان جرحُها ينزف بغزارة ودمها يغطّي وجهها، فاستقبلتها أمي وأجلستها وهدّأت من روعها، ودعت أبي ليرى ما بها،

فما كان منه إلا أن خلع حزامه الجلديّ وأخذ يكشط من باطنه بشبريته طبقةً ناعمةً رقيقة ويضعها في الجرح النازف، وما زال يكشط ويضع في الجرح حتى انقطع الدم، ثم عصبوا رأسها بمنديلٍ وشدّوه على الجرح، وأجلسوها عندهم حتى هدأت نفسُها وراق بالُها، ثم عادت بعد ذلك إلى بيتها وكأنَّ شيئاً لم يكن.

وفهمتُ فيما بعد أن تلك الطبقة الناعمة التي كان يكشطها أبي من حزامه الجلدي كانت تمتصّ الدم وتسدّ الجرح، لأنها من جلدٍ صُنعت فهي تنفع في مثل هذه الحالة.

* * *

* حجاب على عظمة كلب *

في نهاية سنوات الستين من القرن الفائت جاء أحد المشعوذين أو «الخطباء» كما نسميهم في بعض الأحيان، جاء من الضفة الغربية إلى منطقتنا فتهافتَ عليه الناس، كلّ جاءه بمشكلته، وطبيعي أن لديه الحلول الشافية لجميع هؤلاء، وكان أن أشارت أمي على أبي أن يذهب إليه و «يفتح عنده» ليرى السبب في عُسْر الحالة المادية التي نُعاني منها، والتي تربض بثقلها علينا منذ فترةٍ طويلة، فلعله يكون لديه فسحة أمل تخلّصنا من حالة الفقر المدقع التي نعيشها، وكان الحلّ بسيطاً، لخّصه الخطيبُ بقوله: إن «قَرِينةً» تعيش في بيتكم، وتأكل هي وأولادها من طعامكم، لذلك هناك عائلة أخرى «غير مرئية» تعيش على «ثفالكم»[1] وتأكل معكم، وللخلاص منها يجب عمل حجاب على عظمٍ نجس، وهو عظم كلبٍ ميّت، وأحضرنا له عظم كلب فكتب عليه بعض «الخرابيش» ولفَّهُ في قطعة جلد وقال

---

(١) – الثفال: وعاء يحفظ فيه الخبز.

لأبي: عَلّقه على «الواسط»[٢]، وهو العمود الذي في أوسط البيت، وستزول الشدة إن شاء الله.

ومضت شهورٌ والعظم معلّق على حالـه، والوضـع الاقتـصادي لم يـتغير فيـه شـيء، وبعد مدة وقع الحجاب ومعه عظم الكلب فأمسكه أبي ورماه بعيداً بكلّ قوَّته، وكان ينظر إلى أمي نظـرات حنـقٍ وغـضب، ولـولا أنــه خجـل منـا لـصفعها صـفعةً قويـة مدوية، ولكنه اكتفى بقوله لهـا: ومتـى كـان عظـم الكلـب يجلـب رزقـاً، وإن كـان الرزق لا يأتي إلا من ذلك الدجّال فـلا أتـى الله بـه، ثـم استدار وذهـب وهـو يكـاد يتميّز غيظاً.

* * *

* لا يوقدون حطب التين *

كان الناس لا يوقدون حطبَ التين ويكرهون رائحـة دخانـه، وكنـا عنـدما نحتطـب نجمع بعض حطب التين من كَرْمٍ قريبٍ لجدّي، وكـان أهلـي يعرفـون هـذا الحطـب بسبب الثقوب الكثيرة التي تنخرهـا فيـه دودةٌ معروفـة تـشبه الخنفـساء الكـبيرة تفتك بأشجار التين وتعيش في جذوعها وأغصانها.

وذات مرة وضعنا عدة عيدان من حطب التين في النار، فانبعث منها دخـانٌ أزرقٌ ذو رائحةٍ كريهة، فسمعنا نداء أبي من الخارج وهو يقـول: مـن وضـع تينـاً في النـار، أخرجوه وأطفئوه حالاً، فأخرجناه مرغمين، وعندما سألت أبي عن الـسبب أجـاب: هناك اعتقاد بأن الرائحة الكريهة الـتي تنبعـث مـن حطـب الـتين تفـكّ الحُجُـب، وتُفسدها وتُبطل مفعولها، خاصة وأنه في معظم البيوت توجد حجب لجلـب الـرزق

(٢) — الواسط: ج وُسَّط: وهو العمود الأوسط في بيت الشَّعْر.

ولطرد القرينة، وحُجُب أخرى لأمراض الأطفال، وهناك حجبٌ ثمينة لا يدري بها الرجل تعملها بعض النسوة ليظلّ قلب الزوج طوع يمينها، ومن أجل ذلك كانوا لا يُشعلون حطب التين خشية إبطال مفعول هذه الحجب، والتي من الطبيعي أنهم دفعوا ثمنها غالياً لشيخٍ دجّال أو لخطيبٍ كاذب.

* * *

* شاة أمّ رقيبة *

نسمع كثيراً بالمثل الشعبي الذي يقول: «زي شاة أم رقيبة»، فما هي أم رقيبة؟ وما هي شاتُها؟.

أم رقيبة هي نوع من العناكب السامة سوداء اللون، ولها خطوط بيضاء تبدأ من رأسها وتمتدّ على طول ظهرها، وتقول الحكاية: إنها أقسمت أنَّ من تلدغه لا بدَّ أن يدخلَ القبر.

ويسود اعتقادٌ أنه إذا ما لدغت هذه العنكبوت إنساناً فلا علاج لسمّها، حيث ينتفخ جسم الملدوغ، ويحتقن لونُه ويُشرف على الهلاك، والعلاج الوحيد الذي يُشفي من سُمّها هو أن تُحفر حفرةٌ على شكل قبر، ويدخل الملدوغ فيها، وتُذبح شاةٌ من الضأن ويُطبخ لحمها، وقبل نضوج اللحم بقليل يخطف الموجودون قسماً من ذلك اللحم حيث يخطف كلّ واحدٍ منهم قطعةً منه ويأكلها، ويؤخذ كرش الشاة ويُفتح ويُصبّ ما فيه من أوساخٍ وعصارة أكلٍ وغيره على رأس المريض وجسمه ويغطّى القبر قليلاً، ثم يخرج المريض ويغتسل ويوضع عليه غطاء ثقيل حيث يعرق وبعدها يشفى من لدغتها.

والشيء الذي يتخاطفه الناس بسرعة ولا يتركون منه شيئاً يصفونه بلحم تلك الشاه

الذي يخطفه الموجودون قبل نضوجه.

وهذه العادة اختفت ولم تعد موجودة بفضل الطبّ الحديث الذي يعالج مثل هذه الحالات وغيرها من حالات التسمم المختلفة.

* * *

* وتقدّم العمرُ بأبي *

تقدّم العمرُ بأبي، ومرضَ في آخر عمره وساءت صحتُه ووهنَ عزمُه، فأخذ يتذكّر الليالي الماضية وعزم الشباب الذي كان، ويُقارن بين تلك الأيام وما آلَ إليه حاله عندما بلغه المشيب، وكنتُ ألومه في بعض الأحيان على تحسّره لأنني أُحبّ أن أراه منشرحاً بشوشاً كعادته، فيجيبني بقوله: "ويجيك دورك مثل ما الدِّور جاني"، أي سيأتيك دورك فلا تستعجل الأمور، وكان يتذكّر بعض الأشعار التي تصوّر حالته تلك، فيردّدها كثيراً معبّراً عن حسرته ولوعته، ومنها هذه الأبيات:

بَالعَوْن وإنّي جيّد العَزْم والباسْ
أَرْكَب ولا جَنَّ المطَايَا جْفَالِ
واليوم أنا بحال الندامة والأتعاس
ما أركب ولو داسوا على عضدها لي

الشرح:

بالعَوْن: نوع من القسم يشبه تالله. جيّد العزم: شديد العزم. الباس: البأس. جَنّ: جئن. المطايا: الإبل. جفال: جافلة.

تالله أني شديد العزم والبأس، أركب لردّ الغزاة إذا جاءت الإبل جافلة.

أما اليوم وبعد أن أصابني الوهن والكبر فأنا بحال الندامة على ما فات من أيام

جميلة ماضية، وفي حال التعاسة مما أنا فيه الآن، ولا أستطيع الركوب على الناقة حتى لو أناخوها وعقلوها وداسوا على عضدها لأركبها فلا أستطيع، فسبحان مغير الأحوال.

ودارت عجلة التاريخ فجاء دوري كما تنبأ لي أبي، وأصبحتُ أُردِّد الأبيات التي كان يردّدها هو، لأعبِّر بها عن حالتي اليوم كما كان يعبر والدي من قبل.

* * *

* جاري عيد في ذمة الله *

في يوم الخميس ١٢ / ١ / ٢٠٠٦ الموافق ١٢ من ذي الحجة ١٤٢٦ هجرية، انتقل جاري أبو سليمان إلى رحمة الله، وجاري يُدعى عيد البَرَكَات، وقد عاش حتى نيّف على الثمانين، ولكن ما يميزه أنه كان بسيطاً إلى أقصى درجات البساطة، وكان طيباً إلى أقصى درجات الطيبة، وكان أشبه بالأطفال في البراءة والوداعة.

وكنت أجلس معه كثيراً نتداول حول بعض الكلمات التراثية، وحول بعض العادات والتقاليد، وخلال السنتين الماضيتين كنت أكتب مقالات تراثية متسلسلة، وعندما أشك في بعض العبارات كنت أذهب إليه وأناديه وأسأله ما هو رأيك في تلك الكلمة فيسهب في الحديث ويتطرق إلى ما سألتُ وما لم أسأل.

وفي شهر آب الماضي كنت أجلس مع الزميل الكاتب موسى الحجوج في شرفة بيتي، وإذا به يمر وهو عائد من عند رجل من أقاربنا في مثل سنه، وناديت عليه بقولي: أبو سليمان تعال .. تفضل.

فجاء وجلس، فقلت له الآن حدثنا عن الغَفْرَة، وهي نوع من الفرش أشبه بالبساط الكبير فأخذ يشرح عنها شرحاً كثيراً، فقال زميلي موسى الحجوج، إن هؤلاء

الشيوخ كنوز ثمينة وعلينا أن نأخذ منهم ما استطعنا.

وقبل تلك المدة جاء إلينا وتحت إبطه سروال يريد من زوجتي أن تخيطه له، وبعد أن أحضرت لنا الشاي قلت له ما رأيك لو أنني تزوجت عليها، لقد كبرت وتعبت، فقال لا ومن يخيط لي سراويلي.

وقبل ذلك طلب مني بيت المُسِنّ أن أعمل لقاءات مع المسنين عسى أن نخرج كتاباً عنهم، ومكثت شهرين أتردد عليهم أحمل مسجل صوت وآلة تصوير رقمية، وأجلس إليهم فيتحدثون بما يتذكرون من أغانٍ قديمة وأحاديث شيقة، وجمعت منهم الكثير.

وفي يوم وخلال حديثي معه قال لي هل أحدثك بفزورة لأرى هل تعرف حلها أو لا؟ فحدثني بها ونشرتها في كتابي "حكايات من الصحراء" الذي صدر في شهر آذار من العام ٢٠٠٣.

رحمك الله يا أبا سليمان وغفر لك ذنوبك وأسكنك فسيح جناته، وحشرك مع الأمة الصالحة المؤمنة.

وهذه هي قصة الفزورة التي حكاها لي جاري أبو سليمان رحمه الله:

* * *

* الفزورة[1] *

قلتُ لجاري ذات يوم، وهو شيخٌ كبيرٌ في السبعينات من عمره: حدثني يا جاري عن قصة تعرفها أو حكاية سمعتَ بها. فقال سأحدثك بفزورة لأرى هل ستعرفها أم لا؟ فقلتُ له تفضّل، فقال:

---

(١) – حكايات من الصحراء، ص ٥٩.

يُحكى أن أحد القنَّاصة كان يطارد صيداً يصيده في الصحراء، وقادته خطاه حتى وصل إلى بيتٍ مُنفردٍ في الخلاء، ليس فيه أحد من الناس سوى فتاة صغيرة السنّ، فحياها قائلاً:

السلام عليك يا صاحبة البيت.

قالت: وعليك السلام.

قال: أين ذهب أبوك يا فتاة؟

قالت: ذهب يسقي الماءَ بالماء.

قال: وأين ذهبت أمُكِ؟

قالت: ذهبت ترُدُّ الدمعَ بالدمع.

قال: وأين ذهب أخوكِ؟

قالت: ذهب يَطْرُد الريحَ بالريح.

فهزّ الرجل رأسه وقد فهم كلامها وعرف أين ذهب أهلها، ثم لوى رأس جواده وسار في حال سبيله.

وهنا توقّف الشيخ عن الكلام، فقلت له: أكمِل القصة، قال قد انتهت، قلت له: لم أفهم كلام الفتاة، فهلاّ شرحته لي فقال: أما قولها عن أبيها بأنه ذهب يسقي الماءَ بالماء، فهو قد ذهب يسقي بعض نبتات البطيخ التي زرعها، ولأن ثمر البطيخ يتكون أكثره من الماء فهو كالماء، وكأنه بذلك ذهبَ ليسقي الماء بالماء.

أما قولها عن أمها بأنها ذهبت تردّ الدمع بالدمع، فهي قد ذهبت تبكي أحد المتوفين، بعد أن كانت قريبات المُتوفّى قد جئنها وبكين لها عندما فقدت عزيزاً عليها، وكأنها تعيد بذلك دموع تلك النسوة بدموعها الآن.

أما قولها عن أخيها الذي ذهب يطرد الريح بالريح، فقد ذهب للصيد ومعه كلاب سلوقية وهي تسابق الريح في عَدْوِها وسرعتها، حيث تطارد غزالاً سريعاً أيضاً،

وكأنَّ الغزال والكلاب السلوقية التي تطارده ريح يطارد ريحاً لأنه لا يظهر منها أثناء عَدْوِها في المطاردة إلا الغبار الناتج عن سرعة العَدْو.

وهكذا فهمت مغزى القصة ومعناها بعد أن شرحها لي جاري الشيخ.

* * *

يمرّ الناسُ في حياتهم بكثيرٍ من الطرائفِ والأحداث التي تأتي على غير موعد، أو تأتي عكسَ ما يتوقعون، فيكون فيها ما يُضحك أو يُثير الدهشةَ والاستغراب، ولكنها تظلّ في سجلاّتهم قصصاً يتذكرونها ويتندّرون بها، ويروونها بين الحين والآخر.

وحياة الشعراء لا تخلو من مثل هذه القصص وهذه الأحداث شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الناس، ولعلني في هذه السطور أروي لكم بعض المواقف التي حدثت معي جرياً على عادة الكُتّاب الذين لا يتحرّجون من نشر أيّ شيء حتى لو كان يتعلّق بحياتهم الخاصة، ومن هذه القصص:

* * *

* الحمامة والغراب *

قبل سنوات أقامت الحركةُ الإسلامية في رهط مهرجاناً ومعرضاً للكتاب، ودَعَت عدداً من الشعراء من بينهم الشاعر المعروف د. جمال قعوار، ودُعِيتُ أنا كذلك فذهبتُ متأخراً وأسرعتُ في سيري حتى وصلت المكان، ووجدت الشعراء قد وصلوا قبلي وتفرقوا يشاهدون معرض الكتاب بينما جلس د. جمال قعوار على مقعدٍ هناك، فوصلت ورحبتُ به وصافحته وأنا ألهثُ من شدّة التعب، فسألني: لماذا تلهث فقلت له: تعبتُ من المشوار، فأجابني بجملة ما زالت ترنّ في أذني: «إذا هيك بتقول الحمامة وايش يقول الغراب»، وهو يقصد إذا كنتَ تشكو وأنت في مثل هذه السن الصغيرة فماذا أفعل أنا، وكان وقتها في حوالي العقد السابع من عمره،

وسمحت لي الأيام أن أزوره في بيته في الناصرة، وأرى تواضعه وكَرَمه، ولكن جملته تلك ما زالت ترنّ في أذني كلما ذكرته حتى يومنا هذا.

* * *

* جَت منك يا جامع *

قبل عدة سنوات أقامت الحركة الإسلامية في رهط مهرجاناً آخر قرب مسجد الإخاء، ودام هذا المهرجانُ أسبوعاً كاملاً وكانت فيه فعاليات طيبة كأسبوع الكتاب وفعاليات ثقافية مختلفة، ودُعيت أنا والزميل الشيخ محمود أبو غظية لأمسيةٍ تكون مسك الختام وبها تنتهي فعاليات ذلك المهرجان، وعندما جاء ذلك اليوم انشغلت طيلة النهار في إعداد وترتيب ما أريد قوله، وذهبت في الموعد المحدّد أنا والشيخ محمود وكان ذلك قبل المغرب بقليل، وعندما وصلنا مسجد الإخاء وجدنا البيت قد هُدم ولم يبقَ له أثر ولا يوجد أيّ شخص في المكان، فضحكنا وقلنا على رأي المثل: «جت منك يا جامع[1]»، وبعد صلاة المغرب عدت أنا والشيخ محمود لنكمل السهرة معاً ونضحك على تلك المصادفة الغريبة، التي تقبلناها بروحٍ رياضية وكأنَّ شيئاً لم يكن.

* * *

---

(١) – جَت: جاءت. جامع: مسجد.

دعتني في العام الماضي مدرسة ثانوية في بلدةٍ من بَلْدات النقب، وذهبتُ ووجدت أمامي عدداً من الشعراء والكُتّاب، من بينهم: الشاعر عبد الرحيم الشيخ يوسف والكاتب لطفي منصور، وحضرنا قبل الحفل فقراتٍ مختلفةً كلها طيبة وجميلة، وبعدها أخذونا إلى منصة في ساحة المدرسة حيث اجتمع الطلاب والمعلمون وبعض الأهالي، وألقى الشعراء ما أعدّوه لذلك اليوم، وكان مُصوّر الحفل قد نصب آلة تصويره أمام المنصة ليصوّر الحدث بتمامه، ولكن عندما جاء دوري أنزل آلته عن منصبها، ووضعها في حقيبتها وحمل المنصب على كتفه وسار في حال سبيله، فاختصرت أوراقي وقرأتُ ما تيسّر وقلت: «خيرها في غيرها»، ويكفي أنني ازددت معرفةً بهؤلاء الشعراء، وتعرفتُ على البروفيسور لطفي منصور الذي لم أكن أعرفه من قبل.

* * *

* شعراء المناسبات *

رشَّحَ معلّمٌ نفسه لمناقصة مدراء في مدرسةٍ معينة في رهط، ولكي يزيدَ من فُرص فوزه بهذه المناقصة كان عليه أن يُزيّن الحفل بشاعرٍ يمدحه ويعدد مناقبه وفضائله، كما كان الناس يفعلون في العصور القديمة، ولكن الشعراء في هذا العصر تحجّرت قرائحهم وأصابها قحطٌ وجدب ولم تعد تدرّ إلا قليلاً وفي فتراتٍ متباعدة، وعندما دعاني أن أكون ذلك الشاعر الذي يسير برفقته، اعتذرتُ لأنه ليس لديّ ما أقوله ولست متعوداً على شعر المناسبات الذي مضى زمنه وولى، فأصرَّ على ذلك، وبعث لي عدة مرات عدداً من أقربائه ولكنني أفهمتهم برفق بأنني لا أصلح لمثل

هذه المهمة وليس لديّ ما أقوله فغادروا غاضبين، ولكن من حسن الحظ أن ذلك المعلّم فاز بالمناقصة ولم يعد يحتاج لشاعرٍ ولا لقصيدة.

* * *

* موسوعة لم ترَ النور *

قبل سنوات شاركتُ في مهرجان الشعر الفلسطيني الأول في مدينة طمرة، ولاقينا من الحفاوة والاحترام الشيء الكثير، وكان رئيس البلدية في ذلك الوقت شاب مثقّف وخلوق، واستمر المهرجان يومين، وكان أحد الشعراء المغمورين قد جاء وتصوّر معنا عدة مرات وأصبحت بيننا وبينه معرفة طيبة، ومرّت سنوات فكّرتُ خلالها أن أعمل موسوعةً عن الشعراء المحليين في النصف قرن الأخير، وعملتُ جاهداً على الموسوعة أنا والزميل سهيل عيساوي، وكاتَبنا الشعراء وزرنا بعضهم، ثم ذهبنا ذات يوم لمدينة طمرة وزرنا الشاعر علي الظاهر زيداني وكتبنا عنه، ثم توجهنا لذلك الشاعر لنجلس معه ونكتب عنه، ولكن المفاجأة أنه لاقانا ببرودٍ وجفاء وحاول في البداية أن يتملّص من لقائنا رغم أننا كنا نقف أمام محلّه، ولكننا في النهاية جلسنا معه وهو ضيّق الخلق متوتر الشعور، وفهمتُ من حديثه أنه كان يفكّر أننا نريد أن نأخذ مائة شاقل من كلّ شاعرٍ نكتب عنه، ولذلك أصابه كلّ ذلك الهلع والفزع، فخفّفتُ عنه وأخبرته أننا لا نأخذ من أحدٍ شيئاً، ولكنني عندما عدتُ إلى البيت ألغيت فكرة الموسوعة وحذفتها من ذاكرتي رغم أنني عملتُ عليها أكثر من عامٍ كامل، وما زال ملفها ينام قرير العين بين رفوف مكتبتي.

* * *

النجاح الذي حققه مهرجان الشعر الفلسطيني الأول في طمرة، شجّع مُنظّميه على إقامة مهرجانٍ شعريٍّ آخر، ولكنهم في هذه المرة جعلوه في الناصرة، ودعيتُ كالعادة وذهبتُ للناصرة وبحثتُ عن المكان حتى وجدته، وهو لا يبعد كثيراً عن المسجد الأبيض، ولكنه في هذه المرة كان في مقهى صغير يشبه المغارة وتباع فيه الخمور، وكانت تجلس على بوابته شاعرةٌ نصراوية تقبض من كلّ شاعر يدخل مبلغ خمسين شاقلاً عن اشتراكه في ذلك المهرجان، وبعد أن رأى الشعراء الذين لم يتجاوز عددهم العشرة أن المكان لا يليق بهم ولا بأي إنسانٍ يحترم نفسه، لم يمكثوا فيه إلا قليلاً ثم غادروه على عجل، وغادرتُ مثلهم وصليت العصر في المسجد الأبيض، ومنذ ذلك الوقت الذي فَشِلَ فيه ذلك المهرجان، لم أسمع عن مهرجانٍ شعريٍّ ثالث حتى يومنا هذا، ترى هل نجد من يقوم بهذه المهمة.

* * *

* الصحيفة الصفراء *

يقولون في أمثالنا الشعبية: «اللي ما بيقِلّ عقله ما بيفرح»، وهذا ما حدث معي بالفعل عندما صدر كتابٌ جديد لي، ووزعتُ منه على الأصدقاء وبعثت منه للصحف، وأخذتُ نسختين وسلمتهما بيدي لصحيفةٍ في رهط.

ونشرت الصحفُ خبراً متواضعاً عن الكتاب، أما تلك الصحيفة فتجاهلته تماماً، وكذلك فعلت في خبرٍ عن الأمسية الشعرية التي أقامتها المكتبة العامة في رهط والتي كنتُ عريفاً لها.

أنا لا أعرف سبباً لهذا العداء الذي تُضمره لي تلك الصحيفة، ولكنني قلت:

"التمس لأخيك عذراً"، فربما يرى محرروها بأن صحيفتهم أرقى من أن تكتب عن كُتّاب وشعراء محللين، فهي قد اشتهرت بنشر صور الفنانات ونشر المقالات المختلقة التي يقصد بها إغراء الشباب، وهذا ما جعلها عرضةً لسخط الناس وكراهيتهم لها، وكثيراً ما وجّه خطباء المساجد نداءً إلى أصحابها ليكفّوا عن نشر المحرّمات، وحذروا الناس منها ومن دخولها إلى بيوتهم.

ومن حسن حظي أن الله سبحانه وتعالى يلطف بي عندما أُخطئ، وكلّ ابن آدم خَطّاء، فعدم نشر هذه الصحيفة خبراً عن الكتاب هو من لطف الله ورحمته، لأن وجود اسمي على صفحاتها يسوء إلى سُمعتي، ولذلك أقول لها ولأصحابها: شكراً لكم ولصحيفتكم الصفراء، التي ستبقى صفراء في نظر الناس مهما حاولتم زخرفتها وتلوينها.

* * *

* كيف دعونا للنيل *

كان ذلك قبل سنواتٍ غير قليلة، وكان ذلك في أول أيام عيد الفطر السعيد، وكان الناس يُصلّون صلاة العيد في ملعبٍ لكرة القدم جنوبي السوق الحالي، و لما كان الجو شاتياً والأمطار تتساقط فقد دعوا الناس للصلاة في المساجد القريبة من أماكن سكناهم، ولم يكن وقتها مسجد قريب من حارتنا، فقررنا أن نصلّي قرب ديوان عمّي، وهكذا كان، فصلّينا صلاة العيد ثم تناول عمّي كتاباً كان عنده وأخذ يقرأ منه خطبةً من خطبٍ قديمة كانت به، وبما أن ثقافته كانت قديمة ومحدودة ولا يجيد إلقاء المواعظ والخطب، فقد أخذ يدعو للنيل ويقول: اللهم كَثِّر مياه النيل واجعله يفيض على المزروعات في مصر، وأكثر من الدعاء للنيل، وكنا في كلّ دعاءٍ نعيد وراءه، وربما كان بعضنا يكتم ضحكةً كان يضحكها في سرّه، وظل عمّي يدعو ونحن نؤمّن خلفه للنيل وللمزارعين في مصر دعاء ربما كتبه صاحبه قبل مئات السنين.

* * *

* غداً العيدُ يا طفلتي *

في عام ٢٠٠١ أصدر زميلي الشيخ محمود أبو غظية ديوان شعرٍ صغير جعل عنوانه «دموع العيد»، وسكب فيه زبدة إحساسه وحرمانه عندما كان فتى صغيراً يافعاً، ودموع العيد هي القصيدة المحورية التي يدور حولها الكتاب، وهي بحقّ جميلة ومؤثرة، ومما جاء فيها:

غداً العيدُ يا طفلتي

تلبسين ثوبك الجديد
فكفكي الأدمعَ وابتسمي
طاب ثرى أبيك الفقيد
ولوّحي لأمسٍ مؤلمٍ
وانظري بإيمانٍ
صوبَ عهدٍ جديد
فما مضى أصبح أمس
وغداً يوحي
بيومٍ جديد

وها قد أقبل العيد، وبهجة العيد وفرحة الصائمين بتمام صيامهم، أقبل العيد الذي ينتظره الأطفالُ ليفرحوا ويلبسوا ما لديهم من ملابس جديدة، وكأنهم فراشات جميلة ترفرف على أزهار الخميلة، وأسأل الله سبحانه أن يكون هذا العيد عيدَ خيرٍ ومحبة، عيد بسمةٍ وسرور، وأن يُدخل فيه البهجة على قلوب المسلمين، وأطفال المسلمين، وأن يعيده على الجميع بالخير واليُمن والبركات، وأن ينير قلب أخي أبي العلاء كاتب القصيدة، وأن يُبدّل أحزانه القديمة بفرحة تملأ زوايا قلبه وتعيد إليه البسمة التي افتقدها صغيراً، ليعود ويغرّد لنا على دوحة الشعر قصائد عذبة من صادق حسّه ووجدانه.

* * *

كان الجو شاتياً عندما جاء عيدٌ آخر من أعياد الفطر، وكان من عادة الناس أن يذهبوا يوم العيد ليعايدوا كبار السنّ من العائلة، وذهب أبي ليعايد ابن عمٍ له أكبر منه بأعوامٍ قليلة، وأخذني معه في ذلك اليوم ربما ليدربني على معرفة هذه الطقوس أو ليشعر أن ابنه أصبح رجلاً، وكانوا يُحَيّون بعضهم في ذلك اليوم بقولهم: «من العايدين»، فيجيب الآخر: «كل سنة وأنت سالم»، وعندما هممنا بالمغادرة قال لنا صاحب البيت انتظروا هناك لقمة، وانتظرنا قليلاً فجاءوا بصحون كبيرة مليئة بالأرز الأبيض المطبوخ بالحليب، وكان هذا هو الأرز المفلفل، ثم أخذ الرجل يملأ يده بالسكّر ويرشّ أمامنا حتى يصبح طعم الأرز أكثر حلاوة، وكان الناس لا يستعملون الأرز في ذلك الوقت إلا في أيام العيد، وسمعت يومها المثل الذي يقول: «لولاك يا عيد ما ذقناك يا رز».

أما اليوم فأصبح الأرز يقدّم لنا في كلّ يوم، فسبحان مغير الأحوال.

* * *

* شبلي بك الأطرش *

كان أبي محباً للشعر الشعبي وقصص الأقدمين، وكان يشتري الكتب لكي أقرأها له، واشترى يوماً ديوان شعرٍ لشاعرٍ درزيّ يدعى شبلي بك الأطرش، وكان من زعماء الدروز، وقد حبسته الحكومة العثمانية في بلدة تدعى «قسطمون»، وعندما جاء العيد ووجد نفسه في السجن ولا يستطيع أن يرى أهله وعشيرته كتب قصيدةً طويلة عبّر فيها عن لوعته واشتياقه، وما يلاقيه من أسى وعذاب في غياهب السجون، وتحضرني أبيات من قصيدته هذه ظلت عالقة في زاوية من زوايا الذاكرة،

يقول فيها:

يا عيد، يا عيد المواجيع يا عيد	يا عيد ودّي ما تشوفك عيوني
العام عدنا بالبكى والنواكيد	وعَ الحول عدنا بناحية قسطموني
واللي وراها شوف وين المواعيد	ربّك إذا راد الصعايب تهونِ
أوجس بقلبي مثل قصف الرواعيد	كل حين تهمي فوق خدي مزوني
في ضامري كل البلا واللواهيد	من جور أيامٍ سقتنا غبونِ
وإن مت أنا يا قايلين القواصيد	من دون برّ الشام لا تدفنوني

وظلّ الكتاب عندي فترة من الزمن حتى جاء حارسٌ درزيّ متقدّم في العمر، وأخذ يعملُ في حراسة البيارة التي كنا نعملُ فيها، وقد ذكر أبي شيئاً من أشعار شبلي بك الأطرش عند ذلك الحارس، فطلب منه الكتاب ليقرأه ويعيده إليه بعد أيام، ويبدو أن الحارس انتقل ليحرس في مكانٍ آخر فلم يعد، ولم يعد معه الكتاب حتى يومنا هذا.

* * *

* وللقلوب نصيب *

لي أخ أصغر مني سناً، يطيب له أن يتلذذ على ذكر الزواج ولكنه لا يجد الجرأة ليُقدم عليه، ورأيته قبل أيام وهو صائم وريقه يابس ومعه ابنه الأصغر الذي يتعلّم في المدرسة الإعدادية، فقلت له مازحاً لأخفّف عنه: هذا آخر العنقود عندك، قال: لا، هو آخر العنقود عند أمه.

* * *

* تولول ثم تزغرد *

كنتُ في المصرف وكان يقفُ ورائي شخصٌ من حارةٍ مجاورة، فجاء زميلٌ لي وقال: أتعرفُ هذا الذي يقف وراءك، فقلتُ: نعم أعرفه، إنه فلان، ولكنه كان من جيرانكم أنتم في السابق.

فقال: كان عمر هذا الشخص أربع سنوات وهو أخرس لا يتكلم، وذات يوم قطعتْ أمه الشارع وكان يجري خلفها، فصدمته سيارةُ أجرة كانت مارّةً من هناك، أتذكر سيارات الأجرة السوداء الكبيرة، فقلتُ نعم، قال صدمته سيارةُ أجرة من هذا النوع، فأخذتْ أمُّه تولولُ وتصيح، ولكنها بعد لحظاتٍ أخذت تزغردُ بملء صوتها، أتدري لماذا؟ فقلتُ: لا، قال: لأن ابنها هذا بعد أن صدمته السيارة أخذ يصيح وينادي أمَّه وكان لم ينطق قبل ذلك، فانطلق لسانُه وحُلَّت عقدة الخَرَس التي كانت عنده، ولهذا السبب قطعت أمُّه ولولتها وأخذت تزغردُ من شدةِ الفرح، ورُبَّ ضارةٍ نافعة.

* * *

* أُبُــوَّة *

حدّثني أبي رحمه الله أنَّ رجلاً زوّج ابنته لرجلٍ من قريةٍ مجاورة، وكان زوجُها يضربها ويهينها دائماً، وذات يومٍ ذهب أبوها على فرسٍ له ليرى مزرعاً له غير بعيدٍ من بيت ابنته، وأثناء سيره رأى رجلاً على جانب الطريق يضربُ امرأةً وهي تصرخ وتولول وتستغيث، فدفع فرسه نحوهما، وعندما اقترب منهما عرف أن

المرأة ابنته وأن ذلك الذي يضربها هو زوجها، فكظم غيظه وتظاهر برباطة الجأش وقال له بحنق: اضرب ملعونة الوالدين.. اضربها، وما كاد يصل إليهما حتى نزل من على فرسه وحمل الرجل بين يديه ورفعه عالياً وخبط به الأرض فرَضّ عظامه وانهال عليه ضرباً حتى أشبعه، ثم ركب فرسه وأردف ابنته خلفه وعاد بها إلى بيته، وبعد فترةٍ من الزمان جاء عددٌ من الوجهاء يتوسّطون لإصلاح ذات البين لإعادة المرأة لبيتها ولزوجها، وبعد مداولاتٍ وافقَ أبوها على إعادتها شريطة أن لا يتعرّض لها بأذى، وهكذا كان، فعادت المرأةُ إلى بيتها، ويقال إن زوجها لم يضربها بعد تلك الحادثة طيلة حياتها.

* * *

* يدفنون الفرس *

للخيل معزّةٌ خاصة، ومن أجل ذلك يقولون إنه معقودٌ في نواصيها الخير، وقد يكون فأل فرسٍ معيّنة يجلب الخيرَ لصاحبها، ويقولون: «عْتَاب، وكْعَاب ونواصي»؛ فالعتاب؛ هي عتباتُ البيت الجديد، والكعاب؛ كعب المرأة الجديدة، ويقولون: هذه المرأة كعبها أخضر علينا؛ أي أنها جلبت لهم فألاً حسناً، أما النواصي فهي نواصي الخيل، فالبيت والمرأة والفرس ثلاثة أشياء يتوسَّمون فيها الخير والفأل الحسن، وهناك ثلاثة أشياء يجب عدم التفريط فيها؛ وهي المرأة والبارودة (البندقية) والفرس، وكنت في عرسٍ ذات يوم ودار حديثٌ بيني وبين مجموعةٍ من الشيوخ والمسنين حول الخيل وألوانها وأنواعها، فقال شيخٌ منهم: كان الناسُ عندما تموت فرسٌ عندهم فإنهم يكفّنونها ويدفنونها ويذبحون لها عشاءً، وهذا يدلّ على دور الفرس وأهميتها عند الناس في تلك العصور الماضية.

شيخٌ طيّبٌ ومتواضع، له حِنكةٌ ومعرفةٌ تامّة بأحوال العرب والقضاء العشائري، التقيتُ به ذات يومٍ في مطحنة الحبوب، وكان يحتسي القهوة مع صاحب المطحنة، فقال لي اجلس، فقلت له إنني مستعجل، فقال تعال أقصُّ عليك قصةً حدثت لي مع أبيك، فجلست لأسمع تلك القصة، فقال:

كنتُ فتىً ربما في الخامسة عشرة من عمري، وكان أبوك مسؤولاً في بيّارة حمضيات، وذات يوم أخذني لأعمل معه في البيارة، وفي الصباح جاء مسؤولٌ يهوديّ وقال: مَنْ منكم يعرف القراءة والكتابة؟، ولم أصبر أنا، بل قفزتُ وقلت أنا. فقال لي تعال: فذهبت معه فأعطاني عجلةً يجرّها حمارٌ أو فرس لا أذكر بالضبط نوع البهيمة، وقال لي: حَمِّل هذه الصناديق المليئة بالحمضيات على العجلة وأنقلها إلى المكان المعد لشحنها، وأنزلها هناك وأكتب عددها على هذا الدفتر، فأخذت العجلة وبدأت أُحَمِّل الصناديق حتى ملأتها، ثم ذهبت للمكان المعد لإنزالها وأخذت أنزلها وأرتبها فوق بعضها حتى كاد ظهري ينكسر، وكنتُ أتصبب عرقاً فعدت لأبيك وقلت له: لا أريد هذا العمل لأنه ثقيلٌ عليّ، فقال لي وهو يُخفي ابتسامةً عريضة ساخرة: ألم تقل إنك متعلِّم، وهذا العمل يحتاج إلى عِلم، والعِلم زين يا ولدي.. العلم زين!.

ثم أعطاني عملاً خفيفاً أعمل به، ومن يومها وأنا أتذكّر تلك الحادثة وأضحكُ منها ومن ضحك أبيك عليّ.

* * *

مدير مدرسة حاضر البديهة يُحبّ الطرفة والنكتة، التقيتُ به ذات يومٍ مع زميلين آخرين، فقال: هل أحدثك ماذا فعل قريبي بمختار قبيلة هذا الشخص؟ وأشار إلى أحد الزميلين، فقلت: وماذا يمكن له أن يفعل! ، فقال لقد باع فرسه، أتدري كيف؟، قلت: لا، قال إذن اسمع القصة:

كان لي قريبٌ مسكينٌ على البَرَكَة، وكان يقضي أيامه في بيت الشيخ يعدّ له القهوة ويخدمه، وكان للشيخ فرس أصيلة، فكان الرجل يمتطي صهوتها ويخرج بها في كلّ يوم، حتى تظلّ قويةً نشيطة، وذات يوم رأى عُرساً في قريةٍ مجاورة فلوى عنان الفرس واتجه نحوهم، وعندما وصل كان سِباق الخيل على أشدّه، فدفع فرسه مع السباق فسبقت الخيول جميعاً، ثم عاد بها فسبقت الخيل مرة أخرى، فترك السباق وتوجه لبيت العرس وترجّل عن فرسه وربطها، ثم دخل وسلَّم على الحاضرين وجلس، فسألوه إن كان يريد بيع الفرس، فقال: والله لولا أنني بحاجة إلى المال ما وافقت على بيعها، فساوموه عليها فباعها بخمس ليراتٍ ذهبية، فنقدوه إياها فوضعها في عبِّه، وعندما أراد الرجوع قال أريد أن آخذ شوطاً على الفرس مع المتسابقين، فانطلق من أمام البيت حتى وصل نهاية الشوط ثم عاد بها نحو البيت، ثم انطلق بها في الجهة الأخرى ولكنه لم يعد في هذه المرة، فانطلقت وراءه الخيل ولكنه اختفى عنها وساعده الظلام فلم يستطيعوا اللحاق به، وعندما وصل بيت الشيخ ربط الفرس مكانها ونام على فراشه وكأن شيئاً لم يكن. وفي الصباح أخذ شيوخُ القرية المجاورة يبحثون عن الفرس حتى وجدوها مربوطةً بجانب بيت الشيخ، فنزلوا عنده فرحّب بهم وأراد أن يكرمهم بعمل القِرَى لهم ولكنهم رفضوا، وسألوه: هل هذه الفرس فرسك؟، ففهم الشيخ أن وراء هذا السؤال

قصة، فقال لهم: ما الذي جرى من الفرس أخبروني، فأخبروه بالقصة، فنادى على ذلك الرجل فجاء دون أن يبدو عليه أي اكتراثٍ أو مبالاة، فقال له: هل كنت في العرس الفلاني؟، فأجاب: نعم، فقال له: هل بعت الفرس؟، فقال: نعم، فقال: أين المال، أعطني إياه، فأخرج الليرات الذهبية من عبِّه وأعطاها للشيخ، فأعاد للقوم أربع ليراتٍ منها وأعطى الرجل ليرةً واحدة. ثم التفت إليهم وقال: هذا درسٌ لكم حتى تنتبهوا مرة أخرى، فإذا كان رجلٌ بسيطٌ منا يضحك عليكم ويفعل بكم ما فعل، فكيف لو بعثنا لكم رجلاً ذكياً من رجالنا. فعاد القوم بالليرات الذهبية وهم يتعجّبون من ذلك الرجل الذي استطاع أن يخدعهم ويأخذ مالهم، ويبيعهم فرساً ليست له، ثم يهرب بها بعد ذلك، قصة لا تخلو من طرافة.

* * *

* خُذ كيف ودَشِّر كان *

كنا في بيت الحاج أبو علي ودار الحديث حول الزواج كعادة الرجال الذين لا يُشغلهم إلا الحديث عن النساء والزواج، ووصل الحديث إلى الزواج من الفتاة البكر، أو من المرأة الثيِّب التي سبق لها الزواج من قبل سواء كانت مطلقة أو أرملة، فروى لنا الحاج أبو علي القصة التالية:

أراد أحد الرجال أن يتزوّج زوجة ثانية لأنه كان متزوجاً من قبل، وعُرضت عليه فتاتان أحدهما فتاة بكر والأخرى سبق لها الزواج، وكانتا على قسط من الجمال والأخلاق الحميدة، فاحتار الرجل أيهما يختار، فقرر أن يسأل أول رجلٍ يلتقي به، وعندما كان ماشياً التقى برجلٍ مجنونٍ يركب على عمودٍ طويلٍ من الخشب ويحرّك رجليه ويقول له: «حَرَهْ» كما يقولون للخيل عند زجرها وحثّها على

الجري أو السير السريع، فأوقفه الرجل وسأله أي الفتاتين يختار بعد أن أخبره بخبرهما وعن حيرته في اختيار أفضلهما، فقال له المجنون دون تردد: «خُذ كيف ودَشِّر[1] كان، وابعد عن درب الحصان». ثم ركب عموده الخشبي وسار مسرعاً في طريقه.

وفهم الرجل من كلام المجنون أن المرأة التي سبق لها الزواج لا بد أن تذكر زوجها السابق وتقول «كان فلان وكان علان»، فتنغِّص على زوجها الجديد، لأن الرجل بطبيعته لا يحب أن يسمع سيرة الزوج الذي كان قبله، أما الفتاة البكر فهي لا تعرف زوجاً غير زوجها الحالي، وهي تعود إليه وتسأله عن كلّ شيء، وتقول له «كيف» نعمل هذا الشيء أو غيره وهكذا يظل زوجها هو مرجعها الوحيد.

وبالفعل سمع الرجل ما قاله المجنون وأخذ بحكمته وتزوّج من الفتاة البكر العذراء.

* * *

(١) – دَشّر: اترك.

من كنوز
التراث
الشعبي

* لا تفرحي يا أم الولد *

أنْجبت إحداهن ولداً، وكانت امرأة أخرى من جيرانها قد أنجبت بنتاً من قبل، فأصابت أم البنت غيرة شديدة، وأرادت أن تثير حفيظة أم الولد، وأن تُنكِّد عليها بعض الشيء، فقالت لها:

لا تفرحي يا أمّ الوَلَد　　بُكْرَة يُكْبُر وناخْذِه
ونْحُطّ بيته في الخَلا　　واللي يجيبه ناكلِه

الشرح:

أي لا تفرحي لأنكِ أنجبت ولداً، فعندما يكبر سيتزوج واحدة من بناتنا، وعندها سوف تأخذه وتبعد بيته عنك، وما يأتي به من رزقٍ أو طعام سيكون من نصيبنا نحن وليس من نصيبك أنت، ولن ينالك إلا تعب التربية. وكلّ هذا نابع من فرط الغيرة التي كانت تتوقد في أحشاء المرأة الثانية.

* * *

* امرأة تشكو من الضُّرَّة *

حدثني السيد أبو سليمان أنَّ امرأة تزوّج عليها زوجها، فاستاءت كثيراً وأخذت تشكو وتتذمّر، فـ«الضرّة ضرّة حتى لو كانت قطعة جَرَّة» كما يقولون، ولكن ليس باستطاعتها أن تفعل شيئاً أكثر من أن تشكو هَمَّها شِعراً تتغنّى به بينها وبين نفسها وتبثه حُزنها وأشجانها، ومن جملة ما قالت:

يا ونتي وَنّة شَايب　　ثوبه مقصَّر من كُوعَه

يا ونتي ونة عَذْرا   من شوف الضُّرَّة مَلْقُوعَةْ

الشرح:

الوَنَّة: هي الأَنَّة والأنين، ويا وَنَّتِي: يا كثرة أنيني وألمي، والشايب: الشيخ الطاعن في السنّ، ومعنى الأبيات: إنّ أنيني يشبه أنين شيخٍ كبيرٍ، يرتدي ثوباً قصيراً ذا أكمامٍ لا تكاد تغطي كوعه، إنَّ أنيني كأنين عذراءٍ قد أصابها الهلع من مشاهدة الضرة ورؤيتها.

* * *

* الوَرَّادة *

وهذه امرأة أخرى تتذمَّر من عيشتها مع زوجها الذي استخدمها كوَرَّادة تأتي بالماء من الهرابة، وهي البئر التي تمتلئ من مياه الأمطار، فكان أن عبَّرت عن ذلك شِعراً بهذه الأبيات:

يا عيشْتَك يا كَوْبَان   يا عيشة القَرَادِةْ
كلّ يوم يعطيني القِرْبةْ   وكلّ يوم وأنا وَرَّادِةْ

* * *

* زواج من غير الخاطر *

وروى لي السيد أبو سليمان أيضاً أن امرأة زوّجها أهلُها شخصاً لا تريده، فصبرت وعبَّرت عن ذلك شعراً بهذه الأبيات:

هَمّ قليبي يا خَيِّي   كثُر نُوَّار الكَرْمِ
جيزةِ من دون الخاطر   كلّ ما تحلِّ بتَحْرَمي

* هرج القفا *

يقولون إن من طبائع النساء نقل الأخبار ونشرها وإضافة المزيد إليها، ولا تستطيع المرأة أن تصبر وفي بطنها عِلْم أي خبر، وعندما تُخبر به امرأةً أخرى تكون قد أزاحت حملاً ثقيلاً عن صدرها، وفي هذه الأبيات تعبير عن تلك الحالة:

يا يُمَّه يا خَانَت النسوان هَرْج القفا ما يْخَلَّنِه
هَرْج القفا عندهن ناموس لَنِّه قليل يزيدَنِّه[1]

* * *

* فاطمة *

حدّثني أبي رحمه الله أن أعرابياً ولدت له طفلة فأسماها فاطمة، وكبرت فاطمة ولم تنجب أمها أطفالاً بعدها، فقال والدها: أسميتها فاطمة ففطمت العقب كلّه.

* * *

* إن ما نبح، انذبح! *

حدثني السيد أبو سليمان أن شخصاً كان له صديق من المغاربة، وفي يومٍ من الأيام دعاه المغربيّ ليتغدّى عنده، فوافق الرجل، وقبل موعد الغداء بحوالي ساعة ذهب لبيت المغربي ليتحدّثَ عنده، فوجده وراء البيت وقد ذبح جرواً وهو يسلخ فيه، فقال له باستغراب: ما هذا الذي تفعله يا فلان؟ تذبح كلباً وتدعوني للغداء؟!

فقال المغربي: لا، إنه ليس بكلب، بل هو جرو، والجرو إنْ ما نبح، انذبح.

---

(١) – هَرج: كلام. ناموس: تعني هنا عادة. لَنّه: لو أنه.

فعاد الرجل أدراجه ولم يعد يأكل مع ذلك المغربي بعدها.

* * *

* المرابي *

الحاج سالم في العقد السابع من عمره، يختزن في ذاكرته عشرات القصص والحكايات، ويشعر بغبطة وهو يرويها للآخرين، وفي أحد الأيام حدثني بهذه القصة، التي أنقلها لكم كما سمعتها منه، قال:

يحكى أن رجلاً ميسور الحال كان يعيش في إحدى المناطق، وكان الناس في ذلك الوقت يعيشون في حالة فقرٍ شديد، وكان الرجل منهم عندما يشتد به العسر وتضيق في وجهه دروب العيش فكان يذهب لذلك الرجل ليقترض منه بعض المال حتى يشتري لعياله طعاماً يُسكت به جوعهم ولو لبعض حين، وكان الرجل الغنيّ إذا جاءه واحد من هؤلاء الناس ليقترض منه يقول له: "أنا أقرض بفائدة بنسبة عشرة في المائة، فإذا كان هذا الشرط يعجبك أعطيتك، وإذا لم يعجبك فأنت حُرّ.

فيوافق الرجل مرغماً لضيق حاله، فيقول له الغني: كل مئة ليرة تُرجعها لي مئة وعشر ليرات في الشهر، فلا تطيل عليّ حتى لا يثقل عليك الحساب.

فيأخذ الرجل المبلغ ويذهب من عنده ويعيده بعد شهر أو شهرين مع الفائدة المتفق عليها، فيأخذ الغنيّ رأس ماله، ويعيد للرجل الفائدة ويقول له: أما هذا المبلغ فهو لعيالك اصرفه عليهم، ولكن ليكن هذا الأمر بيني وبينك ولا تُخبر به أحداً.

ونظراً لضيق الحال فقد استدان أكثر سكان المنطقة من ذلك الرجل الغنيّ، وأطلقوا عليه اسم المرابي، لأنه كان يقرض بالربا.

ومضت سنوات والناس يقترضون من ذلك الرجل بنفس الطريقة، وفي أحد الأعوام

مَرّت رِجْلٌ من الجراد (موجة من الجراد) فأكلت ما وجدته أمامها من المزروعات، ومن ضمنها مزروعات المنطقة التي يعيش بها المرابي، ولكن الغريب في الأمر أن أرض المرابي ومزروعاته لم يدخلها الجراد ولم يصبها بأذى، بل ظلت خضراء يانعة دون كلّ المزروعات التي حولها.

تعجَّب الناس من هذا الأمر وأصابتهم دهشة لهذا الحادث الغريب، وكيف أنّ الجراد قضى على كلّ المزروعات الموجودة في المنطقة وترك مزروعات المرابي دون غيرها ولم يمسّها بأذى.

وسَرَت شائعة بين الناس أن المرابي قد رشَّ حقوله بمادة منعت الجراد من الاقتراب منه وإلا فكيف يترك حقوله ومزروعاته دون غيرها.

وصل الخبر إلى الحكومة، وما أسرع ما تصل الحكومة مثل هذه الأخبار، فاستدعت المرابي لتستفسر منه عن جلية الأمر، وتسأله عن نوع المادة التي رَشَّها على مزروعاته، وعندما مثل بين يدي الحاكم قال إنه لم يرشّ مزروعاته بأي شيء، فقال له الحاكم: إننا نعرف عنك كلّ شيء وأنك تقرض الناس بالربا، فما هو السرّ إذن في ترك الجراد لمزروعاتك.

قال المرابي: أنا لا أقرض الناس بالربا، فأنكر الحاكم عليه ذلك، فقال للحاكم: أدعُ لي عشرة أشخاص من الذين أقرضتهم، وذَكَرَ له عشرة أسماء منهم، فاستدعاهم الحاكم وعندما مثلوا بين يديه، سأل المرابي أحدهم على مسمع من الجميع وقال له: ألم أقرضك مبلغ كذا وكذا، قال نعم، قال وعندما أعدتَ لي نقودي هل أخذت منك الفائدة، قال لا، قال وماذا قلت لك: قال قلت اصرفها على عيالك ولا تخبر أحداً بما دار بيني وبينك.

وسأل الثاني والثالث حتى أتى على العشرة وكلهم يقولون صدق لم يأخذ منا إلا رأس ماله.

فقال الحاكم: ولماذا لجأت إلى هذه الطريقة وأنت لا تأخذ الربا، قال حتى أحافظ على رأس مالي، لأني لو تركتهم على حالهم لمضت سنين دون أن يرجعوا لي شيئاً من مالي، قال وكم هو رأس مالك، قال كذا وكذا، فقال الحاكم: وقد منحتك الحكومة مبلغاً مماثلاً لرأس مالك جزاءً لصدقك ونزاهتك ومحافظتك على دينك.

وعاد الناس ليخبروا بما رأوا وشاهدوا، وكيف أن هذا الرجل كان يعمل مع الله ولا يأخذ جزاء عمله شيئاً، وأخذوا يرددون الآية الكريمة "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيم".

* * *

رهط في: ٢٠٠٩/١٢/١٣

* خريعة تطرد خريعة[1] *

حدّث شقيقٌ لي أن بدوياً كان يخدم في الجيش على الحدود المصرية، ورأى ذات يوم عبداً أسود يحاول أن يتسلّل ويقطع الحدود، فأمر بملاحقتـه وإلقاء القبض عليه، وما هي إلا لحظات حتى اقتيدَ العبدُ إلى ذلك الجنديّ البدويّ، فدار بينهما نقاش أثار حفيظة البدويّ فأمر بطرحه أرضاً واستلَّ شبريته وأخذ يهدده بقتله وقطع رأسه، فخشي العبدُ من القتل ومن شدة خوفه بالَ في ثيابه، ولما رآه الجنديّ على هذه الحالة رقَّ له وأخلى سبيله، فانطلق يعدو هارباً بكلّ ما أوتي من قوة حتى كادت كعباه تلامس أطراف رأسه من الخلف.

ومرت أعوام ترك فيها البدويّ الخدمةَ في الجيش وعاد لمزاولة حياته الطبيعية، وبعد أن فُتحت غزة بعد حرب عام ١٩٦٧ وأخذ البدو يذهبون إلى أسواقها، ذهب ذلك البدويّ وهو يرتدي لباسه البدويّ التقليدي، وأثناء تجواله في السوق رأى العبد أمامه وجهاً لوجه فاندهش وخاف، ورآه العبد فعرفه وتأكّد منه، فجاء إليه وصافحه والرجل في حالة خوفٍ وذُعر، ودعاه ليتفضل معه إلى بيته ليعمل له غداءً ويكرمه، فأبى البدويّ واعتذر، ولكن إصرار العبد لم يترك له مجالاً للرفض، فأيقن أنه قاتله لا محالة، فذهب معه وهو في حيرة من أمره ولا يدري ماذا يُضمر له ذلك العبد من الشرّ.

وعندما وصل البيت رحّب به العبد وأجلسه في غرفة الضيوف وعمل له طعاماً كأيّ ضيفٍ عزيز، وعندما قدّم له الطعام قال له العبد: هل ترى هؤلاء الأطفال الذين

---

(١) – خريعة: خوفة.

يلعبون في ساحة البيت، فنظر البدويّ ورأى عدة أطفال صغار يلعبون، فقال: نعم أرى، فقال العبد: إنهم أولادي وأنتَ كنتَ سبباً في مجيئهم إلى الدنيا، فقال البدويّ باستغراب: وما علاقتي أنا بهم، فقال العبد: لقد كنتُ متزوجاً قبل أن تراني منذ أكثر من عشر سنوات، وعندما طرحتني أرضاً وهددتني بشبريتك وحدث ما حدث، عدتُ إلى بيتي وما لبثت زوجتي أن حملت وأنجبت هؤلاء الأطفال، وكأن شبريتك كانت سبباً في حلّ عقدة الخوف التي كانت عندي، هل فهمت الآن لماذا دعوتك، فقال البدويّ: إن الله هو الذي يرزقنا بالأطفال وربما كنتُ سبباً ولكنني على أية حال أعتذر إليك مما حدث وأرجو أن يكون قلبك كبيراً وتصفح ما مضى، فقال العبد: لقد صفحت، وأرجو أن تزورني في كلّ مرة تأتي فيها إلى هنا فالبيت بيتك وقد أصبح بيننا عيشٌ وملح.

وغادر البدويّ بيت ذلك العبد وهو يتأمل في كرمه وأخلاقه، وفي هذه الصُّدف التي جعلته سبباً في إسعاد هذا الرجل وعائلته وحمد الله أن أنقذه من مشكلة معقدة وأن تكون نتائجها بعكس ما كان يتصوّر.

* * *

* من أخلاق النساء *

صديقٌ قديمٌ من أصدقائي يكبرني سناً، يُحبّ الطرفة والنكتة، ويضيف الملح والتوابل لقصصه وأحاديثه، ليرى وقعها وتأثيرها على نفوس مستمعيه وينظر إليهم بين الحين والآخر بعين الرضى وهو يبتسم ابتسامة تجعلهم يُصغون إليه ويستمتعون بحكاياته، وقد زارني يوماً وحدثني بقصةٍ جميلة أنقلها لكم كما سمعتها منه، قال:

مضى على زواج رجلٍ سنواتٌ غير قليلة ولم يرزق خلالها بأطفال، وكان هذا الرجل ثرياً وميسور الحال وله مزروعات كثيرة وقطيع من الأغنام والمواشي، وكان له جار رزقه الله بعددٍ من الأطفال، وكان هذا الجار يسهر عنده في كثيرٍ من الأيام ويتسامران ويتحدثان في أمور الحياة وشؤونها المختلفة، وعندما رأى الجار أن صاحبه لم يرزق بأطفال، قال له ناصحاً: لماذا لا تتزوج يا أخي، وهل ترضى أن تعيش مقطوع النسل ويرثك أبناء غيرك، أليس من الأفضل لك أن تتزوج عسى الله أن يرزقك بأطفال يساعدونك في المستقبل ويحملون اسمك، فإن الدنيا لا تدوم على حال، ومن يدري ما تخبئه الأيام؟.

فقال: ولكنني أُحبّ زوجتي ولن أتزوج عليها مهما كانت الظروف، وقد تعاهدنا ألا يتزوج أحدنا إذا حدث مكروهٌ للآخر.

فقال الجار: ولكن ما تقوله يصعب تطبيقه على أرض الواقع، فلو حدث لك مكروهٌ لا سمح الله هل تعتقد أن امرأتك ستعيش على ذكراك وتظل بلا زواج؟

قال: إن المحبة التي بيننا أكبر مما تتصوّر بكثير.

فقال الجار: إنك واهمٌ يا أخي، ولو أثبتُّ لك عكس ذلك هل ستتزوج؟.

قال: لا أظنك تستطيع عمل شيء، فأنا أعرف زوجتي وأعرف مدى حبها وإخلاصها لي، وأثق بها كلَّ الثقة فلا تحاول أن تبتدع الأباطيل وتقنعني بها.

قال الجار: كلّ ما أريده منك أن تنفِّذ ما أقوله لك، وسنرى بعدها أي واحدٍ منّا على حقّ أنا أم أنت.

فقال: وماذا تريدني أن أفعل؟.

قال الجار: أن تتظاهر بأنك مريض، وأن تكفَّ عن تناول الطعام والشراب لعدة أيام، وأن تتظاهر بعدها بالموت، ثم يأتي بعدها دوري أنا.

اتفق الرجلان على ذلك وعاد كلّ منهما إلى بيته، وقد صمما على تنفيذ هذه الخطة

التي رسمها الجار وخطّط لها.

وعندما حلّ المساء تظاهر الرجل بالمرض، وقال إن حرارته مرتفعة وأخذ يشعر بالوهن والتعب، وكانت زوجته لا تتوانى عن خدمته وتقدم له كل ما يطلب، وتبلّل قطعةً من القماش وتعصب بها رأسه، ولكن مرضه أخذ يزداد وبدأ يكفّ عن تناول الطعام شيئاً فشيئاً، حتى اصفرَّ وجهه وبدت عليه ملامح الضعف والهزال.

ومضى على مرضه ثلاثة أيام كان جاره يزوره خلالها ويسأل عن حالته وصحته، وما لبث أن اشتد به المرض ولم يعد يستطيع النهوض، فلزم الفراش وجفّ حلقه وغارت عيناه بسبب الجوع والعطش، وفي الليلة الرابعة كان الضعف قد وصل به إلى حالة شديدة وخشيت عليه زوجته وسهر جاره عنده وبعد ساعات من الغروب قلَّ حراكُه ثم لم يعد يتحرّك، فمسح جاره بيده على جبهته وإذا بها باردة وأمسك بيده فارتخت ووقعت إلى جانبه ففزع الجار وقال: رحمة الله عليك يا جاري، لقد استرد الله أمانته، كلّ ما عليها فان، وأخذ يترحّم عليه ثم سحب الغطاء وغطى به وجهه.

صرخت الزوجة وولولت ولكن الجار طلب منها أن تهدأ وتتحمّل، فالناس نيام ولا داعي لإزعاجهم في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

وعندما أراد الجار أن يغادر ويعود لبيته قالت له: أتريد أن تتركني لوحدي عند جثة هذا الميت، فأنا أخشى من الأموات ولا أستطيع البقاء في هذا البيت إذا لم يكن أحد عندي، وطلبت منه أن يبقى حتى طلوع النهار.

وافق الجار وظل جالساً بجانب جثة جاره، وأشعل النار ليتدفأ في الليل ويحتسي شيئاً من القهوة ليُدفئ بها معدته في هذه الليلة الباردة.

ودار حديث بين الجار وزوجة صديقة فيما تريد أن تفعله بعد موت زوجها، وهل ستعود لأهلها أم لا، فقالت وهي لا تكفّ عن البكاء: لا أدري، ولكن لو عدتُ

لأهلي فماذا سيجرى لبيت هذا الرجل وأين ستذهب أمواله، ومن جهة أخرى فإن أهلها لن يتركوها في بيتٍ لا رجل فيه، خشيةً من القيل والقال وألسنة السوء التي لا ترحم، وسيخرب عندها بيته وتضيع أمواله.

وامتد الحديث بين الرجل والمرأة، فقال لها: ولكن لو تقدم أحدهم وطلب يدك من أهلك فهل تتزوجين، تريثت قليلاً ولكنها لم تجد حلاً أفضل من الزواج حتى تبقى في بيتها وتحافظ على أموالها وأموال زوجها المتوفّى، ورأت أنه لا يوجد من هو أفضل منه هو لهذا الغرض بسبب المعرفة وحسن الجوار التي تربطهم به منذ فترةٍ طويلة، وهكذا اتفق معها أن يطلب يدها من أهلها بعد أن يستتب الأمر وتنتهي أيام الحزن والحداد، واتفقا على ذلك بشكلٍ نهائي.

كان الرجل المريض يسمع كلّ ما دار بين الجار وبين زوجته، فتحرّك قليلاً، فأجفل الجار وأمسك بيده وجسّ نبضه وإذا به يدقّ وينبض، ووضع يده على صدره وإذا به نبضٌ وحياة، فقال: سبحان محيي العظام وهي رميم، لقد عادت روحُ زوجك إليه، وطلب منها أن تأتيه بكأسٍ ساخنٍ من الشاي، وأسند رأس المريض وسقاه قليلاً منه ثم عاد وسقاه عدة مراتٍ أخرى، فدبّت فيه الحياة، ثم طلب منها أن تأتيه بلبن دافئ فأتته به وسقاه حتى تكلّم ونطق، وزغردت زوجته أن عاد زوجها للحياة وأن شفاه الله بعد أن كان في عداد الأموات.

وبعد عدة أيام تعافى الرجل واستردّ صحته وعافيته بعد أن أصبح يأكل ويشرب، وكان جاره يزوره ويطمئن عليه، وبعد أن شفي تماماً قال له: ما رأيك الآن، هل سمعت بأذنك ما دار بيني وبين زوجتك، قال: لقد سمعتُ كلّ شيء.

وبعد مرور عدة أيام صارح الرجل زوجته بنِيّته في الزواج، وخيَّرها بين أن تبقى عنده معززةً مكرَّمة أو أن تعزل ماشيتها وتأخذ أموالها وتعود لأهلها، فاختارت الثانية وعادت لتعيش عند أهلها، وتزوج الرجل وما مضت بضعة أعوام حتى كان

بيته مليئاً بالأطفال الصغار، وأصبح لديه من النسل والخَلَف ما يحمل اسمه ويرثه بعد موته، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

* * *

رهط في: ١٧ كانون الثاني، ٢٠١١

في أرض المواهب هرولوا:

كنا في عرس وكان عددٌ من الشبان يجلسون قريباً مني، وأخذ كلٌّ منهم يُدلي بدلوه ويحكي عن بطولاته والأعمال التي قام بها، فما كان من أحد الجالسين وهو ابن عم لهم إلا أن قال: «في أرض المواهب هرولوا»، وهو يعني أنكم تبالغون كثيراً، وأن كلامكم لا ينطوي على شيءٍ من الحقيقة، وبما أن ذاكرتي مهترئة فقد خشيت أن يُفلت هذا المثل مني، وكنت لا أحمل قصاصة ورق في جيبي فكتبته على جلدة التلفون، ورآه أخٌ لي، فقال ما الذي خربشته على تلفونك؟ فأخبرته فأخذه مني وهو يقول يا شيخ أنت فاضي، ما الذي تستفيده من هذه الأشياء، ابحث عن شيءٍ ينفع. فقلت له: لقد تعوّدت على ذلك ومتعتي في توثيق هذه الأشياء. وهذا المثل له أخ شبيه به ويحمل نفس المعنى يقول: «فرس الخلا جَرّايَة»، أو المثل الفصيح «خلا لك الجوّ فبيضي واصفري».

* * *

زي ذفال أبو عانوس:

حدثني زميلٌ لي بقصةٍ جميلة قال فيها: إن أخاً له يُهمل سيارته كثيراً ولا يعتني بنظافتها وترتيبها، فإذا انكسر ضوءُها يتركه على حاله ولا يصلحه، وإذا تعطّل شبّاكها يتركه بلا تصليح، وإذا تعطل بابها ولم يعد يغلق جيداً يتركه على حاله أيضاً، فقال له أبوه ذات يوم: سيارتك يا ابني زي ذفال أبو عانوس، وعندما سأل زميلي أباه عن قصة هذا الذفال قال له: إن عائلة أبو عانوس عائلة كانت تسكن في

المنطقة، وكان عند أحد أفرادها ذفالاً[1] مليئاً بالخبز، فعلقه ذات يوم في سقف المغارة أو البايكة[2] التي يسكن فيها، وتركه على حاله، فدخلته الديدان وأكلت الخبز الذي بداخله، ثم بدأت تأكل خيوطه شيئاً فشيئاً، حتى تمزّق وأخذ يتساقط قطعةً بعد أخرى وهو على حاله دون أن يُنزله من مكانه أو ينتبه له، فأصبح الناس يتمثلون بهذه القصة للحالات التي يُهمل فيها الناس أشياءهم ويتركونها دون رعايةٍ واهتمام.

* * *

زي الزَّلَق في القيظ:

يُحكى أن رجلاً وامرأته كانا يسيران معاً، وكان الرجلُ يحرص أن تظلَّ زوجته قريبة منه وملاصقةً له دون أن تفارقه، أما هي فكانت تودّ التقهقر قليلاً حيث هناك من تهواه!

وفعلاً، وبما أن كيدهن عظيم، فقد زحلقت المرأة متعمدةً وأوقعت نفسها على ذلك الرجل، وعندما سألها زوجُها عن سبب وقوعها، قالت له إنها زحلقت، فاستغرب هذه الزحلقة التي تقع في الصيف وقال قولته المشهورة: «كل شيء حسبنا حسابه إلا الزَلَق في القيظ»، فأصبحت مثلاً يستعمله الناس في الحالات المشابهة.

* * *

(١) – ذفال: ثفال؛ وهو كيس منسوج يُحفظ فيه الخبز.

(٢) – بايكة: ج بوايك: مبنى من الحجارة والطين يستخدم لخزن الحبوب والتبن.

اللي بيخْرِز خْرَازة بيشرب عليها مَــيّه:

كنا نتناقش ذات يوم في أمرٍ من أمور البلدية، وكـان زميـلٌ لنـا يعمـل محاضـراً قـد أصابه شيء من الحماس ونوَّه ببعض الأمـور وقـال مُحـذِّراً: «اللـي بيخْـرِز خْـرَازة بيشرب عليها مَــيّه»، فنظـرتُ إليـه متفحـصاً، فابتـسم وقـال: أعـرف مـا تريـد، وسأشرح لك المثل، فقلت: هات ما عندك؟.

فقال: كان الناس يحملون الماء في قِرَب (جمع قربة)، والقربـة جلـد مـدبوغ منظَّـف يُعمل لهذه الغاية، وكلمة يخرز أي يخيط الجلـد والأَدَم، وكـانوا يخـرزون القِرْبَـة ويُحكمون خياطتها حتى تمسك المـاء، ومـن يخـرز قِرْبَتـه جيـداً فإنـه يـستطيع أن يحفظ ما معه من الماء، أما من لا يُحكم خرزها فـإنّ مـاءه يـسيل ويبقـى بـلا شـيء، والمثل يعني: أن مـن يحـدِّد هدفـه ويـتقن عملـه يـستطيع الوصـول لتحقيـق مآربـه وأهدافه.

* * *

اللي بيعيش بيَحْذَى في الخليل:

حدثني أبي رحمه الله أنه ذهـب ذات يـوم ليبيـع بعـض القطـع الذهبيـة في مدينـة الخليل، وكان قد وصلت به الحال أن يأخـذ مـن بُرْقُـع أمّـي بعـض القطـع الذهبيـة الصغيرة ليبيعها ويشتري بثمنها طعاماً للعائلة، وبما أنـه لم يكـن في ذلـك الوقـت سيارات فقد ذهب سيراً على قدميه وسلك طرقاً ملتوية وأودية عميقة كثيرة، وبعـد أن باع ما معه عاد يحمل نقوده في جيبه حتى يشتري بها ما يريده من المنطقة، وفي الطريق رأى شخصين من قُطّاع الطريق وكان أحدهم يحمل بندقية، فأيقن أنـه هالـك لا محالة، وكان بينه وبينهم واد عميق، فلم يذهب مـع الطريـق المؤديـة إلـيهم بـل سلك طريقاً أكثر وعورة، وأطلق رجليه للريح بكل قواه فنفذت به على مرتفعٍ آخر،

وكان قد تجاوزهم فنظروا إليه من بعيد ولكنه كان قد تنفّس الصعداء وأفلت منهم، وعندما سألته عن هذا المثل: «اللي بيعيش بيحذى في الخليل»، حدثني بهذه القصة، وقال: إنَّ من يسلم من اللصوص ومن قطَّاع الطريق حتى يصل منطقة الخليل، فانه سيحذي فرسه هناك. وكانت الطريق إلى الخليل في العهد السابق تعجّ باللصوص وقُطَّاع الطرق، الذين ينهبون البضائع القادمة من غزة ومنطقة بئر السبع إلى مناطق الخليل أو الأردن، وكانوا يسلبون بسطاء الناس حتى من أشيائهم الصغيرة وأموالهم القليلة وما يجدونه معهم من ملابس أو متاع.

* * *

اللي ما يغنيه الله، ما يغنيه العبد:

كنا قبل سنوات نعمل في قصّ أشجار الحمضيات، وذهبنا ذات يوم لبيارة سمعنا أن أصحابها يريدون قصّها، ووجدنا المسؤول يجلس في مخزن البيارة، وكان المخزن عبارة عن المكتب أيضاً، وكان المسؤول رجلاً مغربياً قد تجاوز الستين من عمره، وهو شخص هاديء يبدو عليه الوقار، فحدثنا أن مقاولاً أتاه وعرض عليه رشوة يدفعها له شريطة أن يعطيه العمل هو وليس غيره، قال: فقلت له يا ابني اللي ما يغنيه الله ما يغنيه العبد، ومن أجل ذلك رفضه ولم يعطِه العمل، ومرّت سنوات وما زالت هذه الجملة ترنّ في أذني «اللي ما يغنيه الله، ما يغنيه العبد»، فمتى سنعمل بها، ونجعل الإيمان وجهتنا ونتوكل على الله في كلّ أعمالنا ؟!..

* * *

كم من خروف يسبق أمه للمسلخ:

كنت أجلس مع مجموعةٍ من الناس، وجاء رجلٌ وابنه، وأخذ الابن يشكو ويقول إنه كَبُر قبل وقته، وإنه يشعر بتعبٍ وإرهاقٍ شديدين، فما كان من أحدهم إلا أن قال: «كم من خروفٍ يسبق أمه للمسلخ». أي كم من شابٍّ يشيخ قبل والده، أو يصيبه المرض أو الفناء قبل من هم أكبر منه سنّاً.

ولم أستطع حينها أن أخرج ورقةً وأكتب المثل قبل أن يفوتني، خشية أن ينظر لي أحدهم نظرةً فيها كثير من التساؤل حول هذا العمل الذي يرى فيه شيئاً من التطفّل والتصرّف الصبياني الذي لا يتلاءم مع هذا المجلس، لأن مجتمعنا ينظر بسخفٍ لمن يقوم بمثل هذه الأعمال، لكنهم ينظرون إليه بعين التقدير والاحترام إذا ما أصدر عملاً يكون نتيجة لمثل هذا الجمع ومثل هذا الاصطياد، مفارقات لا تخلو من طرافة.

* * *

حَبَّة بَرَكَة:

نسمع الناس كثيراً وهم يقولون: «فلان حَبّة بَرَكَة»، فما هي هذه الحَبّة التي يقصدونها، وما علاقتها بالبَرَكَة، وبما أنني سمعتُ قصةً عنها من قبل، فها أنا أشرحها لكم حسب معلوماتي المتواضعة:

كان الناس عندما يدرسون غلالهم ويخرجون الحبوب، يجعلونها كومةً كبيرة، أو صَلِيبة[1] كما يسمونها، وكانوا يعتقدون أن هناك حَبّة واحدة تكمن فيها البَرَكَة التي تكون في الكومة كلّها، وإذا ما ضاعت هذه الحبة فإن البركة تنعدم منها،

(١) – صليبة: ج صَلاَيب: كومة الحبوب بعد درسها وتنقيتها.

وتصبح تلك الكومة من الحبوب لا تزن إلا نصف ما يُخمّنون عليها أو أقلّ من ذلك، وكانوا هم لا يرون هذه الحبة ولكن ديك الدجاج هو الوحيد الذي يراها، فكانوا غالباً ما يطردون الدجاج ويبعدونه عن المكان، ويقفون للديك بالمرصاد حتى لا ينقر تلك الحبة ويقضي على البركة التي في الكومة كلّها.

* * *

لا يموت الذيب ولا تهفى الغنم:

كنت أتحاورُ مع أحد الزملاء حول مأسسة الحركة الثقافية والإبداع وغيرها، وكانت تُعجبه الكلمات الفخمة مثل مَأْسَسَة ودِيمَقْرَطَة، ومثل هذه الكلمات التي يُعبّر فيها عن معرفته بمجالاتٍ لا يعرفها جليسُه، وكان خلال حديثه يحكي عن موضوعٍ يرى فيه أن نكون بين بين، فقال: «لا يموت الذيب ولا تهفى الغنم»؛ أي يجب أن لا نضيع ما في أيدينا.. ولا نترك ما نريد، أو بهذا المعنى، وحفظتُ هذا المثل في ذاكرتي وعندما غادر زميلي سجلته مع الأمثال الأخرى التي أجمعها منذ سنواتٍ طويلة.

* * *

دقّة محيسن:

سمعت أخي يتحدث عن شخصين وصفَ تصرفاتهما بأنها متشابهة إن كان في سوء المعاملة أو في غيرها، وقال بأنَّ فلان وفلان دَقّة محيسن، وبما أنني سبق أن رأيت جملة «دقّة محيسن»، فقد تبادر إلى ذهني المعنى الأصلي الذي أُخذت منه هذه الجملة واسْتُعير منه هذا المصطلح.

فمن هو محيسن هذا ؟ وما هي الدقّة الخاصة التي دقَّها؟

كان الناس في منطقتنا وربما البدو بشكلٍ عام يحملون سلاحاً خفيفاً هو الشِّبْرِيّة، وكانت الشبرية تعتبر رمزاً من رموزهم التي لا يتنازلون عنها، وكانت الشباري تصنع في الأردن، وكانت مختومة في الجزء العلوي من نَصْلِها بدائرة منقوشة، وفي وسط الدائرة نُقشت جملة «دقّة محيسن»، فمحيسن هنا اسم صاحب المصنع الذي يصنع الشباري في الأردن، وبما أن هناك أعداداً كبيرة متشابهة من هذه الشباري لأنها تصنع في مصنع واحد، فلذلك جاءت جملة دقة محيسن لتدلّ على التشابه، واستعيرت هنا لتدلّ على التصرفات المتشابهة لبعض الأشخاص، إن كان في التصرفات أو المعاملات أو غيرها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلمة «شِبْرِيّة» جاءت من الشّبْر؛ وهي المسافة التي بين طرفي السبَّابة والإبهام في حال فتحهما، وهي تساوي حوالي ٢٥ سم وهو طول الشبريّة، ومن هنا جاءها الاسم.

وهناك نوع آخر من الشباري كان يصنع في مصنع هَوْشَان في الأردن، وكانت الشبريّة الطويلة منه تسمى «هوشانية» نسبة إلى مصنع هوشان المذكور، واسم هوشان منقوش على نصلها أيضاً.

وعلى ذكر التشابه في التصرفات هناك جملة أخرى تؤدي نفس المعنى تقول: «إنهم قاريين على شيخ واحد»؛ أي أنَّ أسلوبهم واحد وخصالهم متشابهة، وكأنهم تعلّموا عند شيخٍ واحد من شيوخ الكتاتيب القديمة، فحفظوا نفس الدروس ورددوا نفس الكلام.

وأذكر جملة للناقد مارون عبود يقول فيها: «إنهما متشابهان كحبتي عدس»، والبعض الآخر يقول: «إنهما متشابهان كقطرتي ماء»، وهكذا جاءت هذه الجمل لتعبّر عن معنى التشابه في الأخلاق والمعاملات والتصرفات المتشابهة.

* * *

طلع بساخن الكعب:

يقولون: «فلان طلع بساخن الكَعب»، ويقولون كذلك: «فلان ما أطلعنه إلا رِجْلاه»؛ أي ما خرج من ذلك الأمر إلا بصعوبة، ولو نظرنا إلى أصل هذا المصطلح لوجدناه مأخوذاً من الشخص الذي يُطلق رجليه للريح هرباً وخوفاً من شيءٍ يهدّد سلامته حتى ينجوَ بنفسه، وبما أن الناس كانوا يمشون حفاة الأقدام ولا يستعملون الأحذية إلا قليلاً، فإنه عند الجري تسخن كعبا الرِّجْلَيْن لاحتكاكهما بالأرض، ومن يطلع بساخن الكعب هو الذي يُفلت وينجو بصعوبة.

* * *

شَرَّعها على الغربي:

أصل المصطلح من بيت الشَّعر، فعندما يكون رُواق البيت أو ساتره الخلفي منسدلاً تكون الرؤية فيه محدودة، ولكن عندما يُرفع ويُشَمَّر الروَاق يصبح المجالُ مفتوحاً والرؤية غير محدودة، ويمكن حينها مشاهدة الأشياء الخارجية بشكل أدقّ وأكثر

وضوحاً، ومن هنا فجملة «شَرَّعها على الغربي»، تعني أن ذلك الشخص كشفَ كلّ ما يتعلّق بالموضوع ولم يترك منه شيئاً مخفياً.

* * *

أول سلّ عبّي:

التقيتُ بزميلٍ لي وكنا حينها أعضاءً في المجلس البلديّ، وتناقشنا حول مواضيع مختلفة، فقال: «أول سَلّ عَبِّي نريد أن نعملَ كذا»، وقفزت هذه العبارة إلى ذهني لتذكّرني بموضوعٍ سبق أن سمعتُه من قبل، له علاقة بالسلة، وأذكر أن أبي رحمه الله كان يُحدّثنا عن قطف الحمضيات في أربعينيات القرن الماضي، وأن العمّال من الرجال كانوا يقطفون الثمار بمقصّات خاصة ويضعونها في سلال كبيرة، وكانت النساء يحملن هذه السلال لمكانٍ يلفّون فيه الثمار بورقٍ ناعم ويعبئونها في صناديق استعداداً لتصديرها للخارج، وأعتقد أن جملة «أول سلّ عَبِّي» جاءت من هذا العمل لتدلّ على بداية الشيء والتركيز عليه قبل غيره، وهي تعني هنا أول شيء نقوم به في بداية الأمر، أو باديء ذي بدء كما يقولون في حالاتٍ أخرى.

* * *

فَرَض لها في العمود:

يُحكى أن رجلاً أراد أن يتزوّج، فذهبَ وطلب يد فتاةٍ من أهلها، فوعدوه بردّ الجواب إن كان بالموافقة أو الرفض بعد أربعين يوماً، ولما كان لا يعرف الحساب أخذ يفرض أو يحزّ في عمود البيت حزّاً واحداً في كلّ يوم حتى يعرف ما مرّ من أيام، ولكن خلال تلك الفترة كانت الفتاة قد تزوّجت وظلَّ صاحبنا يحزّ في عمود البيت حتى اكتملت المدة، وعندما ذهب في الموعد المحدّد وجد كلّ شيء قد انتهى

فعاد بخفّي حنين. ومن يومها يقولون للشخص الذي يريد شيئاً صعب المنال أو لا يمكن الحصول عليه، يقولون له: «افرض له في العمود».

* * *

مخيوط عليه:

عندما نرى شخصاً ضعيفاً يخشى من شخص آخر، وكلما أراد أن يعمل عملاً ما فهو ينظر لذلك الشخص بعيون واجفةٍ خائفة، فغالباً ما نقول عن الشخص الضعيف إنه «مَخْيُوط عليه»، لأنه قد يكون تعرّض لعقابٍ من ذلك الشخص في مراتٍ سابقة فأصبح يهابه ويخشاه ويتحاشى الوقوف أمامه وبين يديه.

وقد جاء هذا المصطلح من طريقة الصقر في الانقضاض على فريسته من الدجاج أو الطيور، وكانت الدجاجة عندما تخرج مع فراخها لتلتقط بعض الحبوب، يَخِيط عليها الصقر أي ينقضّ عليها من الجو ليخطف أحد صغارها، وإذا خطف أحد الصيصان في اليوم الأول فغالباً ما يعود في اليوم التالي، ومن أجل ذلك فعندما ترى الدجاجة ظلاً لصقرٍ أو حمامة، ترفرف بجناحيها وتهرب مذعورة نحو خُصِّها أو قُنِّها حتى تسلم بروحها ولا تقع فريسة لذلك الطائر الجارح. ومن هنا فالمخيوط عليه هو من يخشى شخصاً آخر ولا يجرؤ على عمل شيءٍ في حضوره.

* * *

الزومة فيها سَلَق:

يقولون في أمثالنا الشعبية: «اللَفْتة في الديوان تسوى حصان»، وهناك من يقول: «الشَّنَّة في الديوان تسوى حصان»، وهي بنفس المعنى، والشنّة تعني الالتفات؛ ومعنى ذلك أنه يجب علينا الانتباه إذا كنا في مجلس قبل التكلّم في حقّ أحد

الأشخاص فقد يكون موجوداً بين الحاضرين دون أن نراه أو نشعر به، ومن هنا إذا أراد أحدهم التكلم عن شخص معين بحضور مجموعة من الناس فغالباً ما ينبهه أحدهم بقوله: «الزومة فيها سَلَق»، والزَّوْمَة: هي بقعة صغيرة من الزرع أو العشب المتكاثف على بعضه البعض، والسَّلَق: هو الكلب السلوقي الذي يستخدمونه في الصيد، وعندما يكون في الزومة فهو يرفع رأسه عند سماعه لأيّ حركة، وكذلك يفعل من يسمع كلاماً يمسّه أو يمسّ أحداً تابعاً له، وغالباً ما يرفع رأسه قليلاً حتى لا تفوته جملة مما يقال من حديث فيذهب ويبثه وينشره وربما يزيد عليه.

ومن هنا نفهم أن هذا المصطلح يعني الانتباه قبل التكلم، وعدم التفوّه بكلمات قد تسيء إلى بعضهم دون أن نقصد ذلك، مما يسبب لنا احراجاتٍ نحن في غنى عنها.

* * *

شايل الدنيا على قرونه:

يقولون: «لا تشيل الدنيا على قرونك»، أي لا تحمل كلّ تلك الهموم والأعباء، وتُحَمِّل نفسك فوق طاقتها؛ فتُثقل على قلبك وتُتعب نفسك. والذي يحمل الدنيا على قرونه هو ثورٌ أسطوري كان الناس يعتقدون أنه يحمل الكرة الأرضية على قرنيه، وإذا ما نقلها من قرن إلى آخر تحدث الزلازل الأرضية والعواصف وما شابه. ونسمعهم يقولون أيضاً: «فلان زي ثور الدنيا، شايل الدنيا على قرونه». ومن هنا يجب أن لا نحمل الدنيا على قروننا وأن نعيش حياةً كلها بساطة تكون أقرب للسعادة، لأنك «لو تجري جري الوحوش غير رزقك ما بتحوش»، وفي هذا كفاية.

* * *

سَوِّي خير شَرّ تلاقي:

الشرّ ضد الخير، وهو كل فعلٍ يجلب السوء والضرر، وهو في الفصحى من الشرارة، ولكن العامة ترى أن الشرّ كان كلباً، فقد حدثني والدي رحمه الله أنّ الشرّ كان كلباً عظيماً لا يمسكُ أحداً إلا فتك به، ومن هنا أصبح الجميع يخشونه، ويطلقون اسمه على كل فعلٍ من شأنه أن يجلب سوءاً على صاحبه أو غيره، فنراهم يقولون: «سوّي خير شرّ تلاقي»، و«سوّي خير شر يجيك»، وكذلك «يا دار ما دخلك شر»، ومن هنا ترى العامة أن الشرّ كان كلباً، وقد أطلقوا اسمه على كل فعلٍ من شأنه أن يجلب سوءاً ويؤدي لمشاكل لا تحمد عقباها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

مقالات في
النقد
الاجتماعي

قال لي صاحبي: إننا نعيشُ في عصر الديمقراطية التي هي حريّة الفرد في التصرّف بحرية في نطاق الشرع والقانون، فهل نحن أحرار حقاً أم أننا عبيدٌ لميولنا وأهوائنا؟.

فقلت: وكيف سما تفكيرك إلى هذه الدرجة وأنا أعهد فيك التساؤل لا التفكير!

قال: لقد تأملتُ في أشياء كثيرة فوجدت أننا نلهث وراء أمورٍ تصبح قيوداً لنا في المستقبل، وبذلك نُصبح كمن يُقيّد نفسَه بنفسه ولا يستطيع فكاكها بعد ذلك.

قلت: وما هذه القيود التي تتحدّث عنها أيها الفيلسوف الجديد؟

قال: هل بنيتَ بيتاً؟

قلت: نعم.

قال: هل أخذتَ قرضاً من البنك من قروض الإسكان من أجل بناء البيت؛ أي «مشكنتا» كما تسمى بالعبرية.

قلت: نعم.

قال: وإذا ساءت حالتك الماديّة ولم تدفع عدة أقساط من هذا القرض ماذا يحدث لك؟

قلت: يحجزون على البيت وعلى قسيمة الأرض، لأنني وقّعتُ لهم على ذلك عند محامٍ وكاتب عدل ودفعت أجرة المحامي أيضاً.

قال: إذن أنت عبدٌ لهذا القرض ما دمت حيّاً، فهو قيدٌ قيّدتَ به نفسك طيلة حياتك، أو هو حبلٌ لففته حول عنقك فأصبح ربقةً لا تستطيع منها فكاكاً.

قلت: في كلامك هذا شيءٌ من الحقّ.

قال: وهل في بيتك كهرباء؟

قلت: نعم، وهل يوجد بيت ليس فيه كهرباء في هذا العصر.

قال: وإذا لم تدفع يقطعونها عنك فتستدين من هنا وهناك وتلهث حتى تدفع، أليس كذلك؟

قلت: إنها طاقة نستهلكها فكيف لا ندفع ثمنها.

قال: إذن أنت عبدٌ لها لأنك لم تعد تستغني عنها، وإذا ما انقطعت لبعض الوقت بسبب المطر أو غيره يبدأ أولادُك بالصراخ بسبب الظلمة والعتمة التي لم يتعودوا عليها، فأنت عبدٌ لهذه الطاقة يا صديقي.

قلت: هذه فلسفةٌ عمياء من فلسفاتك الجديدة، وهي ليست من الواقع في شيء.

قال: بل هي واقعٌ وحقيقة، ولكننا لا نريد أن نعترف بهذا الواقع، وندفن رؤوسنا في الرمل كما تفعل النعامة، حتى لا نرى ما نحن فيه من عجزٍ واستكانة.

قلت: إن هذه هي حياة الناس في هذا العصر، وليس باستطاعتي أن أشِذَّ أو اختلف عنهم.

قال: حسناً، وهل لديك هاتف؟

قلت: يبدو أنك أُصبتَ بعقلك، فكلّ الناس اليوم معها هواتف، ألم ترَ أحداً غيري تسأله هذا السؤال، فحتى الأولاد والنساء أصبحوا اليوم يحملون الهواتف، فهي من ضروريات هذا العصر.

قال: وإذا لم تدفع في شهرٍ من الشهور لهذا الهاتف ماذا يحدث لك؟

قلت: لي لا يحدث شيء، ولكنهم يقطعون الاتصال فلا أستطيع مكالمة أحد.

قال: وتلهث كما تلهث مع غيره وتدفع صاغراً لأنه أصبح قيداً جديداً يضاف إلى قيودك الأخرى التي ذكرتها.

قلت: وهل لديك بدائل أو حلول أخرى، أم أنك تريد أن تطبّق عليّ ما لا تطبّقه على نفسك.

قال: وهل لديك انترنت؟

قلت: وهذه أصبحت من ضروريات الحياة، نقرأ من خلالها أخبار العالم ونتواصل فيما بيننا، ويجد فيها أبناؤنا ما يحتاجونه من مراجع ومعلوماتٍ تعينهم في دراساتهم المختلفة.

قال: وإذا حدثَ ولم تدفع لسببٍ من الأسباب وقطعوها عنك، فإنك تعود تلهث كمن أضاع شيئاً حتى تدفعَ وتربطها من جديد، فتصبح هي الأخرى قيداً يضاف إلى قيود عبوديتك.

صمتَ صاحبي قليلاً ثم استطرد قائلاً: وماذا عن ماسورة الماء؟

قلت بعصبية: وهل تريد أن تعيدنا لقصة ماسورة الماء وترْزَعُ[1] لنا كما فعلتَ في السابق وتقول: «حِسّ الكِمَنْكَر دَرَج يا عيال»[2].

قال بلا مبالاة: وإذا لم تدفع وقطعوها عنك تظلّ تجري كالمجنون حتى تعيدها، أليست هي الأخرى من قيود عبوديتنا المعاصرة.

قلت بتأفّف: وهل هناك حلٌّ آخر!

قال: وإذا كان سعر المتر المكعب من الماء قد وصل إلى أكثر من عشرة شواقل فلماذا لا نحتجّ؟

قلت: لقد أصيب الناس بالصمم والشلل أيضاً، ومات لديهم الشعور، وخمدت فيهم جذوة الإحساس فلا يستطيعون تعبيراً رغم ما يلاقوه من عَنَتٍ وجور.

قال: أنا أعرف أنك لا تملك سيارةً جديدة، ولكن هل تدري أن أصحاب أكثر السيارات الجديدة قد قيّدوا أنفسهم بقروضٍ تدوم لسنوات طويلة.

قلت: أعرف، وقد ذقتها في جلدي من قبل، ولم أستطع فكاك نفسي إلا بعد أن

---

(١) – رَزَعَ، يرزعُ رزعاً أو رِزْعَةً: غنّى غناء الرزع؛ وهو لونٌ من ألوان الغناء في النقب.

(٢) – أنظر مقالة "هرابتنا ولا ماسورة البلدية" ص ٨٥.

بعتُ السيارة وخسرتُ فيها خسارةً كبيرة.

قال: ألا ترى معي أنه من المفروض أن تكون الحضارة التي يتحدثون عنها مصدراً لسعادة الناس ورخائهم، بينما ما نراه اليوم هو قمة الشقاء والتعاسة.

قلت: إنها أختٌ للديمقراطية، وهما اسمان لا معنى لهما، وقد سخّرهما الغرب ليكونا أداةً طيّعة يقيّدون بهما حرية الشعوب وينهبون خيرات بلادهم، واستعملتهما السلطات المختلفة محليةً وغير محلية فزادت من معاناة الناس وقضت على البقية الباقية من كرامتهم وحريتهم الشخصية.

قال: وهل أدركت الآن أننا عبيدٌ بمحض إرادتنا في كثير من الحالات، وأننا نصنع القيود ونضعها في أيدينا ولا نستطيع لها فكاكاً، ونظل نلهث وراء رفاهية مشوهة أضافت إلى أعبائنا أمراض الضغط والسكر والقلب.

قلت: وما الحل إذن؟

قال: علينا أن نعود إلى ماضينا، ونأخذ منه ما ينفعنا ويلائم عصرنا، وأن نبحث عن بدائل لكل هذه المنغّصات التي غرست في عقولنا الذل والاستكانة، وزرعت في أجسادنا الهمّ والمرض، علنا نُشعل شمعة الطيبة والبساطة لتنير الطريقَ أمام أجيالٍ لا نعرف إلى أين تقودهم طريق العولمة والحضارة.

قلت: وهل تعتقد أننا سنفلح في ذلك؟

قال: دعنا نحاول، فلأن نشعل شمعةً خير من أن نلعن الظلام.

* * *

رهط في: ١٠ كانون الثاني، ٢٠١١

قال لي صاحبي ذات يوم: إنني أسمع أمثالاً لم أسمع بها من قبل، وربما هي موجودة منذ زمن، ولكن كما أنه لكلّ حادثٍ حديث فكذلك لكلّ حادثةٍ مثل.

قلت: وماذا عساك سمعت.

قال: سمعتهم يقولون: «اللي حَاكمك عَاكمك»، فما معنى هذا المثل، وما المناسبة التي يُقال فيها.

قلت: إنه مَثَلٌ يدلّ على أن الضعيف لا يمكنه مواجهة القويّ، ولا يقوى على ردعه عن ظلمه وتعسفه، فلذلك هو يسكت مغلوباً على أمره ليس له حولٌ ولا قوة، فيبدو وكأنه يرضى عن الوضع الذي هو فيه.

قال: وهل يمكنك أن توضّح لي الصورة بشكلٍ أفضل، وتجعلها قريبةً من فهمي المتواضع ومعرفتي البسيطة.

قلت: نعم، فعندما تهدم السلطات البيوتَ في العراقيب، وفي المجمّعات العربية الأخرى ولا يستطيع أهلها عمل أي شيء سوى الدعاء والتوسل بأضعف الإيمان، فإن ذلك مردّه لأن اللي حاكمك عاكمك.

نظر صاحبي في الأفق وكأنه يستعرض شريطاً لتلك الأحداث التي شاهدها بأم عينيه، في العراقيب، وطوَيّل أبو جَرْوَل، وعتّير، ورَخَمة، وخَشم زنّة وفي مناطق أخرى كثيرة، وقبل أن يعود ويسألني سؤالاً آخر أكملت حديثي له قائلاً: وعندما تفعل شركة الجباية ما تفعله في الناس البسطاء فتقطع المياه عن بيوتهم، وتحجز على حساباتهم، وتُروّع أطفالهم بحقّ وبغير حقّ فذلك من باب اللي حاكمك عاكمك.

قال: ولكنهم يتذرّعون بأنهم ينفذون القانون.

قلت: وأي قانونٍ هذا الذي لا يُطبّق إلا على أمثالنا، ولو كان قانوناً بحقّ لما ميّز بين فئةٍ وأخرى، ثم هل لك أن تُعرّف لي ما هو القانون الذي تتحدّث عنه؟

قال: أُحبّ أن أسمع منكَ، فهل لديك تعريفٌ له.

قلت: إن القانون عبارة عن مجموعة من الأوامر يفرضها القويّ ليكبّل بها الضعيف، فمن أجل ذلك نرى للدولة قوانين، وللبلديات قوانين، وللسلطات المحلية قوانين، وحتى لمدراء مدارسنا قوانين، وكلها من أجل تدجين الناس وجعلهم يؤمنون بأن اللي حاكمك عاكمك.

قال: ألا يوجد خلاص من هذا الذي عاكمك.

قلت: يوجد، بالصبر أولاً، والصمود ثانياً، وعدم التنازل عن الحق، ومقاضاة اللي عاكمك بالوسائل القانونية المتاحة.

قال: فهمت معنى المثل، ولكن كلمة عاكمك هذه ماذا تعني، وهل لها وجود في لغتنا العربية؟

قلت: إنها موجودة في المعاجم العربية، ولسان العرب يشرح معناها كالتالي: عَكَمَ المتاعَ يَعْكِمُه عَكْماً: شدَّه بثوب، وهو أَن يبسُطَه ويجعلَ فيه المتاعَ ويَشُدَّه ويُسَمَّى حينئذ عِكْماً.

قال: هذا في الفصحى، ولكن هل يختلف معناها في اللغة العامية.

قلت: لكي أوضّح لك معناها بشكلٍ دقيق، فإن الكيس الثقيل الذي لا يستطيع شخصٌ واحدٌ حمله بمفرده، فعادةً ما يتعاون شخصان في رفعه وتحميله وذلك بأن يشبك أحدهما يده في يد الآخر ويميلا بالحمل قليلاً إلى الوراء ويرفعاه باليدين الأخريين على ظهر الدابة أو السيارة أو غيرها، ورفع الحمل بالطريقة المذكورة هو العَكْم، فهل فهمت!.

قال: نعم، ولكن هناك مثل آخر مشابه لهذا يقولون فيه: «الكفّ ما بتناطح

المخرز»، أليس هذا شبيهاً بالأول؟.

قلت: هناك صلة قرابة بين المثلين من حيث المعنى وليس من حيث المبنى.

قال: فكيف توضّح لي إذن صورة المخرز والكف التي لا تستطيع مناطحته؟

قلت: لو أمسكنا مخرزاً أو مِسَلّة كبيرة من نوع «المُخَّاط»، ووخزنا بها كفاً عارية ليس عليها ما تتقي به فماذا يحدث لها.

قال: يؤذيها ويسيّل دمها.

قلت: وحتى لا يصطدم الضعيف بمن هو أقوى منه، فإنه يلجأ إلى الانزواء والابتعاد عنه حتى لا يؤذيه وينال منه، وبذلك يسلم من شره وأذاه، وهو يعلم نتيجة المواجهة مسبقاً فيلجأ للعمل بحكمة «الكف ما بتناطح المخرز»، فيجد مخرجاً يسلم من خلاله وينفد بريشه.

قال: وهل هناك أمثال أخرى من هذا القبيل؟

قلت: ألم تسمع بالمثل الذي يقول: «طحت ولاّ رماك الحمار، قال طحت واللي صار صار».

قال: يبدو أن أمثالنا كثيرة في هذا المجال، ولكن يبدو أن بعضها يدعو للتقاعس والخضوع والتسليم بالوضع الراهن، حتى وإن كانت فيه ذلة ومهانة.

قلت: يجب ألاّ نتهم الأمثال ولا نلومها ولا نصفها بصفاتٍ تقلّل من شأنها، فهي جُمَلٌ وعبارات تصور واقع الحدث ولكنها لا تدعو إليه، وهي مرآة تعكس صور الحياة بأشكالها المختلفة، ولكنها لا تشارك في صناعتها، ألم تقل في بداية حديثنا بأنه لكلّ حادثةٍ مَثَل.

قال: نعم، وعسى أن تصور أمثالنا واقعاً أفضل من واقعنا هذا، وحالة أفضل من حالتنا تلك.

وجلس صاحبي يفكّر وكأنه ينبش في زوايا ذاكرته عن أمثال أخرى، وعندما لم

تسعفه الذاكرة ابتسم ابتسامةً عريضة ونهض من مكانه وتركني جالساً لوحدي أفكّر في ما يحدث لمجتمعنا من مآسي وويلات تحدث جميعها تحت باب «اللي حاكمك عاكمك».

* * *

رهط في: ٤ تشرين الأول ٢٠١٠

الشاي هو أحد المشروبات المفضّلة عند البدو، وهو يأتي بعد القهوة من حيث المنزلة والمكانة، ويُقدَّم للضيوف ولأفراد العائلة ويُشرب على مدار اليوم.

والضيف الذي لا يُقدَّم له الشاي يشعر بالإهانة، وقد لا يعود لزيارة مضيفه مرةً أخرى إذا لم يكن هناك سبب واضح يُقنعه بأن مضيفه لم يتعمّد تجاهله وإهانته.

ومن هنا ندرك أن للشاي أهمية خاصة تتجلّى في احترام الضيوف، وفي توفير جوٍّ هادئ للمناقشات من أجل حلّ مُشْكِلٍ أو قضية، يقولون: «بنحِلها على فنجان شاي»، أو «أعزمني على كُبَّاية شاي»، وغير ذلك من العبارات التي تدلّ على أهمية الشاي في مثل تلك المناسبات.

فما الذي تغيّر إذَن في إعداد إبريق الشاي بين الأمس واليوم؟ إليك الحكاية:

لم يكن الشاي حتى النصف الأول من القرن الماضي مشروباً أساسياً كما نستعمله اليوم، فقد كان السكَّر نادراً وغالياً، وكانوا يستعملونه إذا مرض أحدهم بمغصٍ أو غيره، وكانوا يقولون: اعملوا للمريض «كاسة سكّر»، فيشربها ويشعر بالراحة معها، وكان شربه للعلاج وليس للرأس والكيف.

ثم تطوّر الحال:

وانتشر استعمال الشاي بشكلٍ كبير، وأصبح الناس يُعدّونه في برّاد من الألمنيوم، وينضجونه على نارٍ من الحطب، أو من زبل الماشية في بعض الأحيان، وكان يُترك ليغلي على النار حتى يصبح لونه كلون العسل أو الدِّبْس المُصَفّى، وكان لونه صافياً نقياً وله رائحة تجذبك إليه من بعيد، وكان بعد الشرب يترك على حافة الموقد فيظلّ ساخناً وطازجاً.

وسمعتُ شيخاً يقول: «اطبخ الشاي طَبْخ شاة»؛ أي دعه يغلي وينضج جيداً على

النار كما يُترك اللحم ليغلي فترة طويلة حتى يصبح أكثر طراوة ونضجاً.

وكان الناس يُعدّون الشاي في الصباح الباكر فما إن ينهض الأولاد حتى يجدوه ساخناً في انتظارهم فيغمسون فيه خبزهم أو يشربونه دون خبز.

وحدثني قريبٌ لي في الأردن أن شخصاً عمل إبريقاً من الشاي وغمس فيه خبزه حتى أتى على الإبريق كلّه، ثم تنهد وقال: «آخ على بـرّاد شاي للراس». أي أن الأوّل كان للطعام والثاني للكيف.

وكان الرعاة في مراعيهم يعدّون الشاي في دِلال «جمع دَلّة» يتخذونها من علب الطعام المعدنية، ويصنعون لها مقبضاً من سلك يلفونه حولها، وكان الشاي الذي يُعَدّ فيها شهياً ولذيذاً، فالنكهة إذن من النار، وهي التي تُضفي على الشاي تلك الرائحة الخاصة التي كنا نشمّها من بعيد.

ثم تطوّر الحال:

وبعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة تزوّج البدو بالمئات من بنات تلك المناطق، فجلبن معهن بابور الكاز «البريموس»، فأصبح الشاي ينضج خلال دقائق، ولم يعد إبريق الشاي أسود كما كان في السابق، حيث كانت تغطيه طبقةٌ سوداء سميكة لا يمكن جليها حتى لو حَتّوها بالخوصة[1].

وعندما كنت صغيراً ذهبت برفقة أمي لبيت عمّي وكانت زوجته قيسيّة فعملت إبريق شاي خلال دقائق وأحضرته، ولكن ما أثار استغرابي هو لون الإبريق فقد كان نظيفاً جداً ولا أثر للنار عليه فتعجبت منه وكيف لم يصبح أسود كما هي حال إبريقنا.

استمر استعمال البريموس حوالي عشرين عاماً، وأصبح طعم الشاي يختلف بعض

(١) – حَتّ، يحتّ حتّاً: كشط. الخوصة: السكين.

الشيء، ولم تعد فيه نكهة النار الشهية، وتغير لونه وخفّ احمراره.

ولكن رغم انتشار البريموس في كثير من البيوت إلا أن استعمال النار ظل موجوداً، فلم تكن الفلاَّحات والقيسيات في كلّ بيت بل كانت البدويات أكثر عدداً.

ثم تطوّر الحال:

وبما أن الإنسان استطاع أن يحفظ أنواعاً مختلفة من الطعام في معلبات، فكذلك استطاع أن يحفظ الشاي ساخناً طازجاً، وأصبح يُفرغه في سخانات زجاجية «تيرموس» فتحفظ عليه حرارته لعدة ساعات، ولكن بمرور ساعة أو ساعتين يتغير لون الشاي فيها إلى بنيّ داكن، ويصبح طعمه غير مستساغ ولا تقبله الأنفس والأذواق.

وعلى ذكر ذلك السخان فقد كان مارون عبود يطلق عليه اسم «كظيمة»، لأنه يكظم الحرارة ويحفظها كما يكظم الغاضبُ غضبه، وربما اقترح على مَجْمَع اللغة العربية في حينه أن يطلق اسم «كظيمة» على ذلك السخّان، ولكن كلمة سخّان التي استعملها عامة الناس طغت على المفردات الأخرى، وانتشرت حتى أصبحت هي المستعملة دون غيرها.

ثم تطوّر الحال:

وجاء دور الغاز، فانتشر انتشاراً سريعاً وقضى على البريموس الذي انقرض تماماً مخلفاً وراءه تاريخاً حافلاً من العمل الجاد في طبخ الطعام وإنضاجه.

أصبح إبريق الشاي يصنع في دقائق وتغير لونه ليصبح أكثر اصفراراً لأنه بمجرد أن يغلي تنزله المرأة من على الغاز حتى لا يسيل عليه ويوسخه وتحتاج لفكه وتنظيفه، وبسبب قلة الغلي تغير طعم الشاي وافتقد النكهة الشهية التي كانت فيه، ولم يعد له ذلك الطعم اللذيذ، أو تلك الرائحة الزكية التي كانت تجذبنا إليه من بعيد.

ومما زاد الطين بله أن الشاي الناشف الذي يُعَدّ منه مشروب الشاي أصبح أقلّ جودة، وأصبح كأنه مصنوع من ورق التين، وتحول إلى شاي تجاريّ رخيص.

وحتى السكر في أيامنا أصبح أكثره تجارياً، فما إن تضع منه على الشاي حتى يتعكّر لونه، وكأن كلّ شيء في عصرنا أصبح مزيفاً، ومع فقدان الجودة ضاع الطعم والنكهة.

ثم تطوّر الحال:

وأصبح الشاي يُعَدّ في الإبريق الكهربائي (الكُمْكُم)، ورغم أن الكلمة عربية وأصلها «قُمْقُم» إلا أننا نستعملها بالعبرية، لأن البعض يعتقد أن «العبراني أسهل»، وحتى في اللغة افتقدنا الطعم والذوق، ولم تعد أذاننا تستسيغ الألفاظ العربية السلسة، وأصبحت تألَف الكلمات الدخيلة، وضاعت منا تلك الأذن الموسيقية التي كانت تطرب لرنين الكلمات وجمال وقعها على الأسماع.

أصبحنا نسخن الماء في الإبريق الكهربائي ونعمل الشاي (في الكاسة).

كانت الصينية تُقدَّم وعليها كؤوسٌ نظيفة وفارغة ومعها إبريق الشاي الطازج، فيملأها صاحب البيت ويشرب هو وضيوفه، وفي هذا شعور بالأمان لأنهم رأوه وهو يصبّ الشاي أمامهم ويشرب منه معهم، أما أن تُقدَّم كاسٌ مليئة للضيف ولا يرى كيف صُبَّت ففي هذا نوع من عدم الراحة النفسية عند البعض، وقد يساور أحدهم الشكّ فيتركها أمامه ولا يشربها.

وكان البدويّ في السابق عندما يعمل القهوة لضيوفه يصب شيئاً منها في الفنجان ويشربه، ليتذوقها ويطمئن ضيوفه أنها سليمة وغير مغشوشة.

ما تبقى:

وقد يتطور الحال وتسخّن المرأة كأساً من الشاي لزوجها في مسخّن الأشعة «الميكروغال»، أما إذا عملت إبريقاً كاملاً فقد تضعه في المُجَمِّد «الفريزر» وتقصّ منه

بالخوصة وتسخنه في الميكروغال وتقدّمه لزوجها على مدار الأسبوع، كما هي حال الخبز عندنا اليوم.

وربما يتطور الحال فيصبح الشاي على شكل أقراص نمصّها مصًّا، وليس ذلك بمستحيل في عصر ابتعد فيه الناس عن الجودة وعن النكهة الأصلية واكتفوا بما يملأ الجوف حتى لو كان طعمه كطعم الماء، فما الذي قَلَبَ أذواقَنا هل هو العصر، أم هو جَرْيُنا وراء تطورات العصر؟.

تقدم سريع أفقد الأشياء طعمها وربما لو أُحْسِن استعماله لكان أفضل.

* * *

رهط في: ٢٠١٠/١/٩



قال لي صاحبي ذات مساء: هل لك أن تُخبرني يا صاحبي لماذا يربط العامة من الناس قطعاً صغيرةً من القماش الأخضر ويُعلّقونها على غصون الأشجار أو على جدران بعض الأبنية القديمة؟

فقلت له: إن الأمر بسيط، فنحن عندما نقدّسُ شيئاً أو نتبرَّك به نضع علامةً عليه، ونعلّق عليه شرائط خضراء رفيعة حتى يعرف غيرنا ممن يزورون المكان بقدسيته وأهميته في الذاكرة الشعبية، فيتبرَّك به من يأتي بعدنا كما تبرَّك به من جاء قبلنا.

قال لي صاحبي: ألا توجد لهذه العادة جذور في تاريخ الشعوب.

قلت: بلى، فاللون الأخضر يدلّ على الوَرَعِ والتقوى، ومن أجل ذلك كان الناس يُغَطّون قبور الصالحين بقماشٍ أخضر، وكثيراً ما تقطع النساء من أطراف هذا الكساء قطعاً صغيرة تأخذها معها وتُعلّقها في شعر أطفالها أو على أكتافهم حتى تكون حِرزاً لهم وتبعد عنهم الحَسَد وعينَ السوء.

ثم قلت لصاحبي: يبدو أنك لا تسأل هذه الأسئلة إلا وفي نفسك معنى آخر تريد أن تصلَ إليه.

فقال: خطر ببالي أن أُعلِّق قطعاً من القماش الأخضر على فرع البريد في بلدنا وعلى بوابته المقدسة.

قلت: وما للبريد وما لهذه الشرائط، وهل للبريد قدسية؟.

قال: يبدو أن معلوماتك ضعيفة وأنك لا تتابع الأحداث مثلي، ألم تعلم أننا في بلدٍ يصل تعداد سكانه إلى قرابة ستين ألفاً وليس لنا إلا هذا البريد المقدّس.

وأكمل صاحبي كلامه قائلاً: ألا تعلم أن الناس يصطفون بالمئات أمام بوابته المقدسة

كما يصطف الفقراء أمام بوابات وكالة الغوث أو الجمعيات الخيرية، وأنك إذا أردت أن تدفع ورقة صغيرة فقد يكون دورك رقم ٤٠٠، وقد تنتظر ثلاث أو أربع ساعات حتى يصلك الدور، وأنه بإمكانك أن تسافر إلى القدس وتنهي معاملاتك وتعود قبل أن يصلك الدور في بريدنا المقدس.

وكأنّ صاحبي أعجبه الكلام فبدأ يُفرغ ما في وطابهِ وقال: ألا تعلم أن الناس يتوجهون للبلدان المجاورة لقضاء معاملاتهم هناك، لأنه لا يمكنهم الانتظار طيلة اليوم من أجل دفع فاتورة الهاتف.

قلت لصاحبي: وما المطلوب إذن، ماذا تريد مني أن أعمل؟

قال: هل عرفتَ الآن أن بريدنا مقدّس، وأنه بحاجة إلى علامة وإلى تعليق شرائط خضراء على جدرانه وعلى بوابته الشريفة.

وأكمل صاحبي قائلاً: أليس من العار أن يكون في بلدٍ بهذا الحجم قسم واحد للبريد، وأن يتعارك الناس أمامه كما تتعارك الشياه على الغدير.

قلت: وما هو الحلّ إذَن لهذه المشكلة؟ ألا ترى معي أنه يجب أن تكون هناك معالجة فورية من أجل فتح فرعٍ آخر في البلد، فما هو موقف المسؤولين، وأين هم من هذا الأمر؟.

ضحك صاحبي وقال إنك كمن ينادي في وادٍ خالٍ من الناس، أو كمن يرقص في الظلماء فلا يراه أحد.

قلت: لماذا لا نصرخ ونرفع أصواتنا حتى تُلبى طلباتُنا؟.

قال: سوف ينطبق عليك بيت الشعر القائل:

لقد أسمعتَ إذ ناديتَ حيّاً ولكن لا حياةَ لمن تنادي

قلت: وهل المسؤولون في غفلة عن هذا؟ أم هم نيام لا يرون ما يجري في هذا البلد؟

قال: لا، بل هم على عِلْمٍ كاملٍ به، وهم لا ينامون ملءَ جفونهم كما كان يفعل أبو

الطيب المتنبي من قبل(1)، ولكنهم في قلقٍ دائم خوفاً على تلك الكراسي أن تقع من تحتهم.

قال: ليتني أعمل نجاراً لأدقَّ بعض المسامير في كراسيهم المتخلخلة علها تصمد ولو لبعضِ حين.

قلت: عُد إلى شرائطك الخضراء، ودعك من تلك الأمور، فإنها لن توقظ ضمائر غلبَ عليها سلطانُ النوم فلن تصحوَ أبداً.

وضع صاحبي يده على وجهه وضغط بسبَّابته على خدّه حتى كادت تصل العظم، وغرق في وساوس وأفكار لا نهاية لها، وسمعته يتمتم بصوتٍ خفيض ويقول: حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل.

* * *

تلميحات:

(١) – عن بيت لأبي الطيب المتنبي يقول فيه:

أنامُ مِلءَ جُفوني عن شوارِدِهَا ويسهر الخَلْقُ جَرَّاها ويَخْتَصِمُ

رهط في: ٤-١١-٢٠٠٩

قالت لي أمي ذات يوم: لقد تعبتُ يا ابني من نَشْلِ الماء على الهرابة[1]، عشرات السنين مرَّت وأنا أنشل الماء في كلّ يوم، مرةً للشُّرْب وطَهْي الطعام، ومرةً لسَقْي المواشي القليلة التي نُربيها في البيت، لقد اهترأت يديّ من حبل الدلو، والناس ينعمون قربنا بماءٍ جارٍ، فما إن تفتح جارتنا تلك الحنفية حتى يتدفق الماءُ منها صافياً زلالاً، فمتى سنصبح مثلهم، أليس من حقنا أن نكونَ كالناس وأن نعيشَ كما يعيشون.

قلت: إن لهم قسائم أرض يا أمّي أما نحن فليس لنا، وبدونها لا يُرَكِّبون لنا ماسورة ماء.

تَذمّرتْ أمي وقالت: وهل سنبقى على هذا الحال إلى ما لا نهاية، لقد نَخَرت الشيخوخةُ عظامي، ولم يبقَ لنا من العمر إلا أقلّه، ومن حقنا أن ننعم بما ينعم به جيراننا من هذا الماء النقيّ الزلال.

قلت: يا أمي أنا لا أملك ثمن قسيمة أرض، فما العمل؟.

قالت: وهل أنا الرجل أم أنت، تصرَّف كرجل ولا تجعلنا دائماً متأخرين عن الناس.

قلت: أمري لله، وفي المساء أقنعت زوجتي أن تبيع ذهبها ومصوغاتها لكي نشتري قسيمة أرض حتى نُرَكِّب فيها ماسورة ماء.

قالت زوجتي: يبدو أنك تخدعني وتضحك على عقلي بذلاقة لسانك، فمتى ستشتري لي ذهباً مكان الذي تريد بيعه.

---

(١) – الهرابة، ج هَرَاب: هي بئر تمتليء من مياه الأمطار.

قلت لها: لا تخشي على مصوغاتك، فرزق الشباب على الأبواب كما يقولون.
وفي الصباح كنا ننتظر أنا وزوجتي عند محلّ المجوهرات، وما إن فتح أبوابه حتى كنا أول الداخلين، وباعت زوجتي الليرات الذهبية التي على بُرقعها، باعت الفطيرة والمخمسيّة، وبقيّة مصوغاتها من أساور وخواتيم، وقبضنا ثمنها وخرجنا، وعادت زوجتي إلى بيتنا أما أنا فذهبت للمدينة واشتريت قسيمة أرض، وكان الأمر سهلاً ميسوراً ليس فيه تعقيدات كما هي الحال اليوم وعدتُ فَرِحَاً مسروراً.
وفي اليوم التالي حَمَلتُ أوراقي وتوجهت لقسم المياه ودفعت ثمن ماسورة ماء وخلال ساعات كانت ساعة الماء تتلألأ تحت أشعة الشمس بلونها الذهبي وكأنها قطعة من الذهب الخالص.
أخبرت أمي بما فعلتُ وحملتها معي في تندر البيجو وأنزلتها عند الماسورة لتراها بنفسها، فما كان منها إلا أن ضمتها بين يديها المرتجفتين وأطلقت زغرودةً مدوِّيةً في المكان.
وضعت يدي بلطفٍ على فم أمي وقلت لها: لا تفضحينا الله يستر عليك، فكلّ الناس هنا عندها مواسير ولا حاجة للزغاريد يا أمي.
قالت: من فرحتي يا ابني لم أستطع منع نفسي فخرجت مني تلك الزغرودة، فدعني أُعَبِّر عن فرحتي.
بنينا بعد ذلك بيتاً في قسيمة الأرض، وأصبحنا نشرب ونتبحبحُ على بَرَكَةِ الله، ودام الأمر كذلك عدة سنوات نسينا خلالها الهرابة والدلاء وأَرْشِيَة الدلاء، كما نسينا أكثر العادات الجميلة التي كنا نتحلّى بها في السابق.
ومع مرور الوقت تغيّر الحال، وأخذت أسعار المياه ترتفع شيئاً فشيئاً، ثم أضافوا إليها رسوماً جديدة اسمها رسوم المجاري، وضريبة أخرى اسمها الأرنونا، وأصبحت السلطة المحلية تستأجر شركات جباية مزودة بجُبَاةٍ عُتاة غلاظ شداد لا

يعصون السلطة فيما تأمرهم، فأصبحوا يُنَكِّلون بالناس ولا يحترمون للشيوخ إلاًّ ولا ذِمّة، ولا يقيمون وزناً للأرامل أو للأيتام، ولا يعرفون شيئاً اسمه حُرْمَة البيوت.

وضَجّ الناس وهم يرون ساعات الماء التي دفعوا ثمنها من رزق عيالهم تتكدّس في سيارات الجباية وتُنقل إلى سجنٍ قَسْرِيّ لا تخرج منه إلا بعد دفع أثمانٍ باهظة للمياه ولأتعاب الجباية في إهانة الناس وقطع الماء عن عيالهم.

وكانت ساعتنا الذهبية واحدةً من هذه الساعات، ولكنها امتلأت غباراً وضاع بريقها ولم يعد بها ذلك الجمال الذي كنا نراه بها من قبل، فقلنا عسى أن تبيعها السُّلطة وتفكّ أزمتها وتخرج من ضائقتها، أما أطفالنا لو عطشوا فيمكن أن يشربوا كولا ويستغنوا عن الماء حتى حين.

ضاقت أمي ذرعاً بهذا الوضع، ولم تعد مخصصات الشيخوخة التي تتقاضاها من التأمين الوطني تكفي لتغطية هذا الكم الهائل من الضرائب، ولم تعد تملك ثمن الدواء، فاختفت الابتسامة من على ثغرها، وازدادت عمقاً تجاعيد وجهها، وخشيتُ أن يحدث لها مكروه مما تعانيه من ضغطٍ مكبوت، وضيقٍ شديد تُخفيه في صدرها ولا تُظهره علينا، وكأنها تريد أن تحمل هذا العبء لوحدها.

قلت لها: وَلِمَ هذا الحزن يا أمي؟

قالت: ألم يعدوننا بإلغاء ضريبة المجاري والتخفيف عنا قدر الإمكان.

قلت: نعم، وعدوا فأخلفوا وحكموا فظلموا، وهذه عادة من يصل السلطة، فإن ضمائرهم تنام نومة أهل الكهف ولا يستفيقون إلا قبل الانتخابات بعام.

قالت: ألا يخشون أن يعلو دعاء المظلومين ويصعد إلى السماء ليرفع شكواهم لمن يجمع الناس ليومٍ لا ريبَ فيه.

قلت: لا أدري، ولكنني أذكر قول الله تعالى: «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً».

قالت أمي: إن مُرَتّبك لا يكاد يُغطّي مصروفات البيت والأقساط الشهرية من قرض

الإسكان، وأنا لن ستكفي مخصّصات شيخوختي، وكيف لـي أن أعـيش في ظـلّ هـذه الظروف القاسية، فإذا كانت الماسورة سبباً للذل والهوان الذي نلاقيه في معيـشتنا، فلتنقص الماسورة ويغنينا الله عنها، يمكننا أن نعيش بدونها.

وفي صبيحة اليوم التالي عادت أمي وبَنَتْ خيمتها في مكان بيتنا القديم، وهي تلعـن اليوم الذي دخلنا فيه البلد وعرفنا فيه المواسير، وكانت تدقّ أوتاد البيـت بعـصبية وتقول: هرابتنا ولا ماسورة البلدية، هرابتنا ولا ماسورة البلدية.

أما أنا فلم أستطع الصمود طويلاً تحت وطأة الضرائب وتهديـدات الجُبَـاة فعـدت إلى مكان بيتي القديم وبنيت خيمةً هناك، ودعوت أصـدقائي القـدامى فجـاءوا وجلـسنا نحتسي القهوة ونُغنّي معاً على أنغام السمسمية:

حِسّ الكِمَنْكَر دَرَج يا عْيَال ... وتعَدَّى بيوت الجِهَالين
حِسّ الكِمَنْكَر دَرَج يا عْيَال ... واثنين يـرُدَّنْ بَعَـارِين

* * *

رهط في: ١٤/ ١١ / ٢٠٠٩

قلت لابني ذات يوم: أُريد أن أُعلِّمك بعض المصطلحات التراثية لكي تحفظها وتعرف معناها، خاصةً بعد أن ابتعد الناسُ عن منابع تراثهم وتركوا عادات آبائهم وأجدادهم وانساقوا وراء بهرجة المدنية الجوفاء وزُخرف أباطيلها، ولم يعد الجيل الجديد يعرف من تراثه إلا النزر اليسير.

فقال: وهل تنفعني هذه المعلومات يا أبي، وأكثر ما تتحدث عنه لم يعد موجوداً على أرض الواقع، وأصبح أكثره محفوظاً في أماكن الآثار والمتاحف نراه ولا نُحِسّ به.

قلت: يا ابني إنَّ من لا ماضي له لا حاضر له، وكلّ ما أُريد أن أُعلّمك إياه هو بعض الكلمات والمفردات القليلة عسى أن تنفعك عند الضرورة.

فقال بتأفّف: قل ما تشاء يا أبي ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

قلت: هل سَمعتَ بالقُلاَّلة، وهل تعرفُ معناها؟

قال: لا، لَمْ أسمع بها من قبل.

قلت: أُريد أن أُبسّط عليك الموضوع وأُقرِّبه إلى ذهنك وفهمك حتى تستوعبه بسرعة، ألم تَرَ في سوق المواشي بعض الخرفان المقصوصة وقد ظلت بقعة من صوفها دون قَصّ تُغطّي ظهرها وحَقَوَيْها.

قال: نعم، رأيتُ ذلك.

قلت وهل تعلم لماذا أبقوها دون قَصّ؟

قال: لا، لا أعلم.

قلت: في فصل الصيف تكون حرارة الشمس مرتفعة في بلادنا، وحتى لا يتعرّض البَهْمُ الصغير لضربةٍ من تلك الحرارة العالية، فإنهم يُبقون هذه البقعة من الصوف

حتى تُغطّي الظهر وتحافظ على الكليتين فلا يصيبها أذى.

قال: الآن فهمت معناها، وقد كنت أراها ولا أعرف السبب في إبقائها كالنتوء على ظهر تلك الخرفان الصغيرة.

قلت: أتعرف كيف استعارَها الناس في هذا الزمان؟

قال: لا.

قلت: أصبحوا يحلقون للأولاد والشبّان بهذه الطريقة، يَقُصّون شعورَهم ويُبقون لهم قُلاَّلةً على رؤوسهم.

نظر ابني إليَّ نظرة فيها كثير من التساؤل والاستغراب، وقال: ماذا تعني بذلك يا أبي؟

قلت: هل ترى تسريحة شعرك هذه، إنها تُشبه قُلاَّلة الخروف الصغير.

نَفَرَ ابني وقال: ماذا جرى لعقلك يا أبي، أتُشبِّهني بالخروف.

قلت: لا أشبِّهك أنت، بل أُشَبّه تسريحة شعرك هذه ليس أكثر.

تَغَيَّر وجه ابني وتَجَهَّم بعض الشيء وأطرقَ قليلاً كأنه يفكّر في أجوبة لهذه الأسئلة التي لم تخطر له على بال، ولكنه آثر الصمت على الخوض في هذا النقاش الطويل وظلَّ جالساً مكانه.

قلت: وهل تعرف عُرْفَ الديك؟

فأجابني بحنق قائلاً: رغم أنّ أُمي لم تعد تُرَبّي دجاجاً كما كانت في السابق، إلا أنني أعرف عُرْفَ الديك؛ إنه اللحمة الطرية الحمراء التي على رأسه، ثم سكت برهة قصيرة وتابع حديثه وقال: وأعرف أيضاً أنك تريد أن تُشبّه تسريحة أخي الجديدة بعرف الديك، أليس كذلك!.

قلت: عليك نور، إن هذه التسريحة التي يُمَشِّطون فيها الشعر إلى أعلى حتى يصبح كعُرْفِ الديك مستوحاة من العُرْف كما ذكرتُ لك.

قال: وهل هذه هي المصطلحات التراثية التي تريد أن تُعلّمني إياها، ألم تجد خيراً منها حتى شَبَّهتني بالخروف وشبَّهتَ أخي بالديك.

قلت: هناك مغزى آخر أريد أن تفهمه أنت ومن هم في مثل جيلك.

قال: وما هو المغزى الذي ترمي إليه؟

قلت: إن حضارة الغرب التي نقلدها تقليداً أعمى لا تناسبنا، ولا تتلاءم مع عُرفنا وعاداتنا، ولا مع أذواقنا التي تعودت على الأناقة والاحتشام والهيبة والوقار، فلندع شوائبهم لهم، ولنسر على النهج السليم الذي سلكه السلف الصالح من قبل.

قال: لا تُبعد بي كثيراً يا أبي، ولماذا لا نأخذ منهم ما يُعجبنا؟

قلت: إذن ضع حلقةً صغيرة من المعدن في أذنك أو في أنفك أو حتى في سُرَّتِك، ودَعْ أختك تسير مكشوفة البطن والظهر، أليس هذا من عاداتهم.

رأى ابني توتري وعصبيتي، فقال بهدوء: كفى يا أبي.. كفى، إن ما تقوله هو عين الحقيقة، إننا لا نستطيع مجاراتهم في عاداتٍ لا تمت إلى واقعنا بصلة، ولا يربطنا بها رابط، وإن في عاداتنا من الفضائل والخلال الحميدة ما لن يصلوا إليه أبداً.

هدأت ثورة أعصابي وخَفَّ توتري فقلت لابني ببرود: وهل اقتنعت بكلامي الآن؟

قال مخففاً عني: لقد اقتنعتُ بكلامك يا أبي، لقد اقتنعت.

قلت: إذن أضف إلى معلوماتك التراثية كلمتي قُلاّلة وعُرْف؟

ابتسم ابني ابتسامة خفيفة ووضع يده على شعره الأملس، وقال وهو ينهض من مكانه: لقد حفظتها يا أبي، لقد حفظتها، ودخل غرفته وتركني ساهماً أُفكّر في قضيةٍ أخرى.

* * *

رهط في: ٢٠٠٩/١١/٢٢م

يبدو أن صاحبي أصيب بالهَوَس المعرفي، فهو كثيرُ التساؤلِ يسألُ عن كلِّ صغيرةٍ وكبيرة، ويحاولُ معرفةَ كلّ ما يدورُ حوله وكلّ ما يستجدّ على الساحة من أحداث، وقد جاءني ذات يومٍ متحمساً يفركُ يديه من شدّة الانفعال، فعرفت أن لديه شيئاً يريد أن يُفضي به إليّ ويُخبرني به، وما إن وصل وألقى التحية حتى بادرني بالسؤال قائلاً: هل يُمكنك أن تخبرني بماذا تُفاخرُ الشعوب؟.

قلت: ومن أين لي أن أعلم والشعوب يُمكن أن تُفاخرَ بأشياء كثيرة، فبعضهم يُفاخرُ بمصارعةِ الثيران، وآخرون بمُنَاقَرَة الديوك وغيرهم باصطيادِ الأفاعي وغير ذلك كثير.

قال: لا.. لا.. ليس هذا ما أقصده، بل أقصد في المجالِ العمرانيّ والمعرفي.

حَكَكْتُ ذقني بسبّابتي وأنا أفكِّر ثم قلت: المكتبات العامة يمكن أن نُفاخرَ بها لأنها تُوفّر لأبنائنا المراجعَ والمصادرَ فينجحون في دراساتهم ويتفوقون في مجالات تخصصهم، فهذه واحدة يمكن أن نُفاخرَ بها.

قال: جميلٌ ما ذهبتَ إليه، ولكن متى كانت في بلداننا مكتبات عامة؟

قلت: لا تستعجل الأمور، فربما يأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ، فلعل بعضها يفتتح قريباً.

قال: وماذا بعد، ألا توجد أشياء أخرى.

قلت: مهلاً أخي، ألا ترى كثرة المدارس في بلدنا، ألا ترى المساجد العملاقة التي ترتفع مآذنها في السماء وكأنها تريد أن تقول للملأ الأعلى ألا إننا نحن مسلمون، أليست هذه معالم حضارية يمكن أن نعتزَّ ونفاخرَ بها.

قال: حقاً إنها أشياء لا يمكن إنكارُها، ولكن.. وصمتَ برهةً ثم قال: هناك أشياء

جديدة ظهرت في بلدنا، يبدو أنك لم تنتبه لها.

قلت مستغرباً: وما هي؟

قال: ظاهرة انتشار المقاهي ومحلات البليـاردو، ألا تقرأ دعاياتها في الصحف المحلية.

قلت: أرى هذه الدعايات ولكنني لا أقرأها.

قال: وهل تعلم كم بلياردو في بلدنا؟

قلت: وهل من المهم أن أعرفَ عددها، وهل وجودها أو عدمه يهمني بكثيرٍ أو قليل.

قال: بلى، فهي رمزٌ حضاريّ هامّ تدلّ على رُقِيّ البلد الذي تكون فيه.

قلت متعجباً: وهل محلات البلياردو رمزٌ حضاريّ، أم أنها رمزٌ للتخلّف والفساد وإضاعة الوقت في لهوٍ لا يُشبع ولا يُغني من جوع.

قال: ألم تكن في واحد منها من قبل؟

قلت: إنني أخجل أن أَمُرَّ بجانبها، حتى لا يراني أحد ويظنني كنتُ فيها.

قال: أنت ذو عقلية قديمة متخلفة، تعيش في عصور ما قبل التاريخ، ولو أتيح لك أن تدخل محلاً من هذه المحلات وتسحب ولو مرةً واحدة عدة سحبات من إحدى الأراجيل لدار رأسُك بعكس عقارب الساعة.

قلت: وهل يرضى العاقل أن يدخل سليماً ويخرج مسطولاً حتى يجاري الحضارة التي تتكلم عنها، وإذا كان هذا هو وجه الحضارة التي تظنها فهي إذن حضارة مساطيل، وليست حضارة تقدّم ورقيّ.

قال: لا تعقد الأمور يا أخي بفلسفتك الجوفاء الفارغة، ألا تعلم بأنها تلمُّ شبابنا بدل أن يسهروا في المدن المجاورة.

قلت: أليست لشبابنا بيوت يمكن أن يسهروا فيها، ألا يمكنهم أن يطالعوا في

بيوتهم الكتب ويشاهدوا البرامج المفيدة ويتعلموا أصول دينهم.

قال: ربما، ولكن ألا تعلم أن بها جلسات هادئة ومريحة تُبعدك عن جو البيت وصخبه.

قلت: نعم، وكانت بها في رمضان سهرات رمضانية ملتزمة في وقت صلاة التراويح، وكانت طبولها تدقّ حتى بعد منتصف الليل، ومن حسن الحظ أن واحداً من هذه المحلات لا يبعد كثيراً عن بيتي، وكان يقلقُ راحتي وراحةَ أسرتي على مدار الأسبوع.

قال: وهناك أنواع فاخرة من المعسّل، مثل الفخفخينا على سبيل المثال؟

قلت: وما هي الفخفخينا؟

قال: هي نوع من المعسّل الفاخر، ألم تسمع بها.

قلت: ظننتها في البداية من الفخفخة، لأن من يتفخفخ بها يظن نفسه من أبناء الذوات، ثم أنا لا أعرف أنواع السجائر لأنني لا أدخّن، فكيف أعرف أنواع المعسّل.

قال: وهناك مشروبات خفيفة مثل شراب القوّة، وعادة ما يشرب الواحد عدّة عُلَبٍ منها، فيعود لبيته بعد الثالثة صباحاً وهو موفور النشاط والقوة.

قلت: أقسم بالله إنني لم أرضَ لنفسي أن أشربها في مكّة المكرمة، لمجرد أنني أشك أن كلّ مشروب يُنعش النفس ويجعل الإنسان يفرح هو لا شك يؤثر على الأعصاب، وبالتالي لا يكون فرق بينه وبين المشروبات الممنوعة الأخرى.

قال: وهل أنت مفتي.

قلت: أنا أفتي لنفسي، ما كان جميلاً أتيته وما كان قبيحاً أبيته.

شعرتُ بشيءٍ من الحنق والعصبية وقلت لصاحبي: كيف يمكن لشخصٍ من هؤلاء أن يذهب للعمل صباحاً وهو لم ينم طيلة ليله، وكيف يمكن أن يقود سيارته

ويحمّل أطفالنا للروضة أو للمدرسة، ألا نُعرّض حياة هؤلاء الأطفال الأبرياء للخطر عندما نضعهم تحت رحمة سائق مسطولٍ من هؤلاء.

قال صاحبي: لا تنفعل يا أخي بهذه السرعة، ودعنا من الحديث عن محلات البلياردو التي يبدو أنك غير راضٍ عنها، وأخبرني عن رأيك في المقاهي التي في بلدنا؟

قلت: وماذا ينفع رأيي والناس ينظرون إلى الضارّ والمفيد بعين اللامبالاة، وكأن الأمر لا يعنيهم أو يهمهم في شيء.

قال: إن الإقبال على هذه المحلات أكبر مما تتصوّر، ألم ترَ الجموع الغفيرة التي تَفِدُ إليها في كلّ يوم.

قلت: حقاً ما تقوله، فقد مررت قبل عدة أيام ورأيت أكثر من خمسين سيارة تقف أمام مقهىً فعجبتُ من هذا الإقبال العجيب، والذي يشبه حفلة عرس أو صلاة جمعة بلا تشبيه.

قال: لقد كانت هذه حفلة افتتاح، وصاحب المقهى يدعو الناس ويوزّع عليهم طعاماً وشراباً كثيراً في مثل هذه المناسبة، فيتهافت عليه الناس كما ترى، والمثل يقول: «اللي من بلاش كَثِّر منه».

قلت: لله في خلقه شؤون.

قال: أليس هذا دليل على نجاح هذا الفرع من التجارة.

قلت: جميل، ولكن لو كانت هناك ندوة ثقافية أو أمسية شعرية فهل كنت ترى مثل هذا العدد هناك.

قال: وهل يوجد طعام في مثل هذه الأمسيات الأدبية.

قلت: ولِمَ الطعام؟

قال: الاجتماعات لا تحلو إلا بصحون الفتّ، وأذكر أن أحدهم عمل وليمة صغيرة

فدعا إليها كثيراً من الناس، فقلت له: ولمَ كلّ هؤلاء الناس يا أخي، قال: «اللي ما له صيت بيعمل لحاله صيت».

قلت: وما دَخْل هذا بذاك.

قال: حديثٌ يجرّ آخر.

شعر صاحبي بأنه أثقل عليّ بكثرة أسئلته ونقاشاته، وأراد أن ينهي هذا الحديث الذي أثار انفعالاتنا، فقال لي: وخلاصة القول.

قلت: خلاصة القول أن نتقي الله في أعمالنا، وأن نبحث عما يفيد الناس لا عما يلهيهم ويخدّرهم ويسطل عقولهم، فالأعمال كثيرة ورزق الله أكثر من خلقه، وقليل من الحلال يُغني عن كثير من الحرام، وأسأل الله أن يهديهم سواء السبيل، وأن يسدد خطانا جميعاً لما يحبّ ويرضى.

ابتسم صاحبي وهو يقول: آمين، آمين.

* * *



عندما كان الشاعر القديم يبكي على أطلال بلدته التي تهدمت وأصبحت أثـراً بعـد عين، فلا غرو أن نبكي نحن وقد عاصرنا بيـت الـشَّعْر وعـشنا فيـه سـنين طويلـة، نبكيه ونرثيه لأنه ضاعَ وانـدثرَ بالفعـل، ولا أعتقـد بـأنَّ التـاريخَ سيعود للـوراء، ولذلك لن يعودَ بيتُ الشَّعْر ولن نعيشَ فيه مجدداً ولن نراه إلا في المتاحف والصور.

بيت الشَّعْر ذلك المنزلُ البسيط الذي آوانا صغاراً، وعشنا فيه حقبةً من شـبابنا ضـاعَ إلى غير رجعة، ذلك البيـت الـذي منحنـا الحريـة المطلقـة والـدفء والأمـان أصـبح صفحةً مطويةً في سِفْر الذكريات. إنه ذلك الكنز الثمين الذي لن يدركَ قيمته إلا مـن عرفه عن قرب، أو من عاصرَهُ وعاش فيه.

أحببتُ أن أكتبَ عنه وأنا يعتصرني الأَلَم وتملأ نفسي المرارة لما آلَ إليه وضعه، ولمـا جَنَـتْهُ عليه الأيام، ولا أطلب من الدهرِ أن يُعيدَ عجلةَ التاريخِ إلى الـوراء، ولكـنني أعرفُ أنَّ عصرَ بيت الشّعْر هـو عـصرُ الحريـة والجـود والكَـرَم والرجولـة الحقّـة، وعصر المروءة والشهامة والنخـوة العربيـة الأصيلة، وعـصر اللغـة النقيـة والنطـق السليم الذي لم يدخله لَوْثٌ ولا لَحْنٌ ولا لكنة أجنبية.

إنَّ العيش في بيت الشَّعْر لا يعني الجهل والتأخّر وعـدم اللحـاق بركـب الحـضارة، ومن يقل ذلك لا يعرف تلك الحياة على حقيقتها المجرّدة، ولكنه قـد يكـون سمـع بها من مصادر مشوهةٍ مسمومة.

ونحن عندما نقول اليوم: نريد اللحـاق بركـب الحـضارة، فـأي حـضارةٍ تلـك الـتي نقصدها، حضارة الاختلاط والفساد وانتـشار المخـدرات والعنـف بـشتى أنواعـه، أم حضارة الكذب والنفاق والمماطلة والتسويف والأخلاق المتدنية الرديئـة، فـأين نحـن من ذلك؟ وهل ما وصلنا إليه اليوم هو تقدّمٌ أم تأخّر؟ أم انحدارٌ نحو هاويـةٍ لا يعلـم

قرارها إلا الله.

أين نحن اليوم وقد أصبحنا نعيش في بيوتٍ من الحجر محدودة المساحة والمكان تشبه جِحَرة الفئران تضيق بالأبناء حيناً فيتشتتون، ولا يجدوا ملجأً لعائلاتهم الصغيرة وطموحاتهم الكبيرة، وتتفكك بذلك أواصر العائلة الواحدة، وعُرَى الروابط الأسرية المتينة التي تجمعهم على التراحم والمحبة والتآلف الروحي العميق.

بيوتٌ من حجر بعد أن كانت من شَعْرٍ أو وَبَر، ولكن الفرق شاسع، فالحرية المطلقة التي منحتها الصحراء لأبنائها جمعتها بيوت الحجر بين أربعة جدران، لتصبح قيوداً نضعها بأنفسنا في أيدينا ونقيّد بها حرياتنا وعاداتنا وخصالنا الحميدة التي تَمَسّكنا بها طيلة قرون عديدة.

هواءٌ نقيٌّ ينساب كالنسيم العليل كنا نستنشقه من مصادره الطبيعية، واليوم نعيش على هواءٍ مصطنع تجلبه مراوح كهربائية وندفع ثمنه غالياً، فمتى كان الناس يدفعون ثمن الهواء؟

وضجةٌ عالية تُحدثها تلك المراوح تجعلنا نشعر كأننا نعيش في مصنع، بعد ذاك الهدوء وتلك السكينة التي كنا نتمتع بها في بيوت الشعر.

كنا نُحسّ في فصل الشتاء بكلّ زخّةِ مطر، ونسمع صوت وقعها الرتيب يُدندنُ على سقوف بيوتنا، وربما يسقط بعضُ رذاذها على وجوهنا، فنشعر ببرودةٍ ناعمة ونفرح لها، أما اليوم ونحن في بيوت الحجر فلو جاء طوفانٌ في الليل وجرفَ الأرض من حولنا لما شعرنا به، وكأننا نعيش في ملاجئ مغلقة تحت بطن الأرض.

إهانةٌ تلو إهانة نعيشها في بيوت الحجر، فلا يكاد يَمرّ شهرٌ دون أن يزورنا جابي السلطة المحلية ومعه رسالة إنذار بقطع حنفية الماء إن لم ندفع، ولو كان الدفع طبيعياً لقبلنا به، وقلنا ندفع ثمن ما استهلكناه، ولكنهم يبيعوننا الماء بأسعار

الكولا، وليس هذا وحسب ولكن علينا أن ندفع أيضاً ثمن سيلان مياهنا في قنوات المجاري، وحتى لو سقينا بعض أشجار التين في ساحات بيوتنا، أو غسلنا الغبار عن سياراتنا، وحتى لو كان هذا القانون لاغياً أو مجمداً فعلينا أن ندفع، وإلا سوف يحملون عفش بيوتنا ويبيعونها في المزاد العلني. فهل كانت هذه الإهانات موجودة في بيوت الشَّعر، أم أنها من معالم الحضارة ومزايا التطور الذي كنا نطمح له، فجنينا على أنفسنا كما جنت على نفسها براقش.

الإهانات كثيرة ومتكررة ولا نكاد نخلص من إهانة إلا ونقع في أخرى، حتى تعودنا الذل والخنوع، وأصبحنا كالخراف الوديعة نأكل ونشرب وندفع، لم نعد نصرخ، ولم نعد نتألم ولم نعد نقول لا، حتى لا تكون تصرفاتنا بدائية ونحن نعيش في عصر الحضارة ونعيش في بيوت الحجر، والتي كانت سبباً في ضياع راحتنا النفسية، وفي تشتيت أفكارنا، وزعزعة استقرارنا وهدوء بالنا.

كنا ونحن في بيوت الشَّعر إذا جاء ضيفٌ يخرج له ربّ الأسرة مرحباً وباشّاً ويقدّم له القهوةَ والطعامَ أو القِرَى، وكلّ ذلك بنفس راضيةٍ مطمئنة، تهتزّ لأريحية الجود والكَرَم، أما اليوم فعندما يأتي ضيف يخرج له أحدُ الأبناء الصغار ويقول له أبي ليس موجوداً، فيعود الضيف أدراجه، وأصبح في قدوم أي شخص علامة سؤال واستفهام، ما الذي يريده؟ ولماذا جاء؟ وما هي العلاقة التي بيني وبينه؟ حتى أقلع الناس عن زيارة بعضهم البعض، وكَفّوا عن كثيرٍ من المجاملات التي كانت بينهم، إنها ظاهرة من مظاهر الحضارة وعلامة من علامات التطور والرقيّ، التي وصلنا إليها بعد أن أصبحنا نعيش في بيوت الطوب والحجر.

لم تكن بناتنا ونساؤنا يخرجن من بيوتنا ونحن نعيش في بيوت الشعر، ولم يكن يعملن خوادم وجواري كما هي حالنا اليوم، لقد تفسخنا بكلّ ما في كلمة التفسّخ من معنى، وأصبح الأب يحتال ويتملّق لتعمل ابنته موظفةً أو سكرتيرة، أو مساعدةً في

روضة أو في غير هـذه الأعمـال، أيـن نحـن اليـوم أجـبني أخـي القـارئ، وربمـا لا يعجبك كلامي لأنك لم تذق طعم الحرية التي ذقناها بالأمس، ولم تذق طعم المـرارة التي نعيشها ونُحِسُّ بها اليوم.

* * *



كنوز يغيبها الثرى

شموعٌ أضاءت في فضاء بلادنا ثم ذوت وانطفأ نورها، ومصابيحُ أنارت طريق الأجيال ثم ذبلت وخبا فتيلُها، إنهم كبار السنّ في بلادنا الذين يتساقطون واحداً تلو آخر، إنهم كنوزٌ ثمينة لا تُقدّر بثمن، ولا يمكن للكلمات أن تحمل ما يستحقون من ثناء، ولا للعبارات أن تسطّر سطور صمودهم وصبرهم وإصرارهم ومحافظتهم على إرثنا العربيّ الخالد، ولكنها الحياة التي مهما تمدّ حبال العمر إلا أنها تعود وتطويها في آخر المطاف.

لكلّ واحدٍ من هؤلاء الشيوخ قصةٌ تُروى وحديثٌ يُسمع وحكاياتٌ شيقة وتاريخٌ عريق، ولكلّ واحدٍ منهم أرشيفٌ غنيّ بتاريخٍ عاصروه هم ولم نعيه نحن، وبأحداثٍ عاشوها بحلُوها ومُرّها ولم ندركها نحن، فرووها لنا مراتٍ ومرات، لنعتبرَ ونتعظَ ونسير على خطاهم ونسترشد برأيهم ونقتدي بهم وبأفعالهم التي ستظل محفورةً في تاريخ بلادنا على مدى عصورٍ وعصور.

لقد كان كلّ واحدٍ منهم شاهداً على عصره، وراوياً لأحداث زمانه، ولكنهم ككلّ البشر لا بدّ أن تسير بهم قافلةُ الحياة إلى الرحلة الأخيرة، فيترك رحيلهم في قلوب من يعرف قيمتهم حسرةً ما بعدها حسرة.

أشعر بحشرجةٍ تقف في حلقي، وبدموعٍ تتجمّد في آماق عيوني وأنا أراهم يذبلون وتُغيّبهم الحياةُ فلا تبقى إلا آثارهم العطرة.

تكلمت مع الكثير منهم ونقلت عنهم ما استطعتُ نقله، ولكنني أعرف بأنني ما نقلتُ إلا القليل، وما هو إلا حفنة من بيدر معلوماتهم وفتات من مائدة معرفتهم.

إننا مُقصّرون، لأننا لم نأخذ عنهم ما يكفي، ولم نسجّل من أخبارهم إلا النزر اليسير، رغم أنهم كانوا يعرفون قيمة ما لديهم من معلومات، وكانوا يفتحون

قلوبهم وصدورهم لنا، ويروون لنا بصدقٍ وعفوية ما شاهدوا ورأوا، ولكن جهودنا فردية تظلّ قليلةً مهما حاولنا، فالكنوز كثيرة ولكن الناس لا يدركون قيمة الشيء إلا بعد أن يضيع من بين أيديهم.

وقبل أيام كنتُ في خيمة عزاءٍ لواحدٍ منهم، وكنتُ ساهماً أُفكّر في مآل الناس، واسترجع جملةً سبقَ أن قرأتُها لأحد الكتّاب يقول فيها: لو استطعنا أن نكتب تاريخ شخصٍ واحد بكلّ مشاعره وأحاسيسه لكتبنا تاريخ البشرية كلها. فقلت في نفسي: ونحن لو استطعنا أن نكتب تاريخ شخصٍ واحد من هؤلاء الشيوخ لكتبنا تاريخ منطقةٍ بأكملها.

كان يعتصرني الأسى، وتتقاذفني الهواجس، وترفرف فوق رأسي سحابةٌ من الحزن والكآبة، حتى طرقَ سمعي صوتُ شيخٍ يجلس قُبالتي، وسمعته يتحدّث عن عام ١٩٣٥، ويشرح عن أشياء عاصرها في ذلك الوقت، فانزاحت بحديثه تلك الغلالة السوداء التي كانت تنسدل فوق عينيّ، وأصختُ السمعَ حتى أحتوي حديثه كلّه فلا تفوتني منه شاردةٌ ولا واردة.

وكان يقارن في حديثه بين فائت الأمس وحاضر اليوم، وكأنه ينحو باللائمة على تقلبات الزمن وعلى الناس الذين تغيروا بين عشية وضحاها. فقال: كنا نذهب إلى مدينة غزة فنرى جنازةً تمرّ ويلاقيها موكبُ عرس فنعجب كيف يحدث هذا في بلدٍ واحد، ونتساءل أين الاحترامُ والواجبُ بين الناس، وأين مراعاة شعور الآخرين، وكان من عادة الناس في بلادنا أنهم يحترمون أهل المتوفى ويراعون شعورهم ولا يقيمون حفلات الأعراس إلا بعد مرور عام، أو بعد أن يمر عيدان، عيد الفطر وعيد الأضحى على ذلك، ولكن دارت الأيام فما كنا نراه غريباً مستهجناً عند غيرنا، أصبح عاديّاً ومألوفاً في بلادنا فسبحان مغير الأحوال.

وأضاف الشيخُ قائلاً: لقد تغيرت القيمُ والمفاهيم وقَلّ الاحترام والواجب بين

الناس، فإذا كان بيت أحدهم منصوباً لعرس وتوفي قريبٌ لـه مـن لحمـه ودمـه فـلا يقيم له واجباً، وليته يكمل عرسه بهدوءٍ وصمت، ولكنه يقوم بالطبل والزمر وكأن ما حدثَ في جواره لا يعنيه بكثيرٍ أو قليل.

واستطرد يذكر بعض العادات التي كانت سائدة في ذلك الوقت، فقال: كان الناس يبنون بيتاً للعزاء كبيت العرس ويذبحون الذبائح ويقودون شياهاً على أهل المتوفى، وكأنهم في مناسبة عرسٍ لا مأتم، وقد اختفت هذه العادة منذ حوالي ٥٠ عاماً واختفت معها سلبياتها التي تتمثّل في إجهاد أهل المتوفّى زيادةً على حزنهم على فقدِ عزيزٍ عليهم.

وذكر أحوال النساء في تلك الفترة أيضاً، فقال: كانت النساء يتجمعن في اليوم الثاني للوفاة ويعملن حلقة ويرمين أقنعتهن ويكشفن رؤوسهن ويندبن ويَنُحْنَ بعباراتٍ مسجوعة يذكرن فيها مناقب المتوفى ومدى حزنهن عليه، فيؤججن مشاعر الحزن من جديد، وكانت هذه الدائرة التي يدُرْنَ فيها تسمّى مَنَاحَة، وقد اختفت هذه العادة أيضاً كما اختفت أختها من قبل.

ولم يفت الشيخ موضوع الحداد، فقال: كانت المرأة تُغطّي كلّ ما هو ذهبيّ وبرّاق من حليّها، فتغطّي الشناف الذي تضعه في أنفها بخيط أخضر تلفه عليه، وكذلك على حُلقانها حتى لا يظهر بريقه وهو يتدلى من أذنيها، وتتقنّع بشاشٍ أخضر داكن اللون أو بقنعةٍ سوداء لا تطريز عليها، إضافة إلى ثوبها الأسود المطرّز بخيوطٍ خضراء أو زرقاء قليلة، وحزامٍ أزرق باهت اللون.

أما الغسيل الأبيض فلا ينشر على الحبال الخارجية، بل تنشره على حبل داخل البيت لأن اللون الأبيض لا يدل على الحداد والحزن، وحتى لا يظن أهل المتوفى أن في هذا شماتة بهم رغم أن المثل الشعبي يقول: «الموت ما فيه شماتة».

وغادر الشيخ بيت العزاء، وبقيت بعده لبعض الوقت أتأمل في قيمة هذه المعلومات

التي يسردها الشيوخ، وفي تلك المعلومات التي يسردونها في مناسباتٍ أخرى، وكيف أننا لا نقتنص منها إلا القليل، بينما هي تتقلص وتختفي بمجرد أن يرحل عنا هؤلاء الشيوخ، فترحل معهم معلومات عصرٍ لم يحظَ بالتوثيق أو التدوين، ولو كُتب لأكثرها البقاء لأصبح لدينا تاريخ موثّق صحيح، نستمدّ منه العراقة والأصالة التي كان عليها أهلنا وسلفنا الصالح، فهل نحن معتبرون.

وهذا غيض من فيض، فهل نستطيع بعد ذلك أن نسابقَ الزمن، وأن نجمع من أفواه الأحياء من شيوخنا ما نستطيع جمعه، أم أننا سنظل كسالى خاملين، ثم نصحو بعدها ونتحسّر ولكن بعد فوات الأوان.

* * *

رهط في: ٠٦، آذار، ٢٠١١

لمن الكتابة يا أبي

وتسألني ابنتي قائلةً: لماذا تكتب يا أبي؟

فقلت لها: وهل نسأل الإنسان لماذا يتنفّس الهواء، فالكتابة بالنسبة لي كالهواء الذي أتنفسه، والذي لا أستطيع العيش بدونه.

فقالت: أنت تكتب لمن فالناس لا يقرأون.

قلت: أكتب حتى أعوّدهم على القراءة.

قالت: وماذا تجني من هذه الكتابة، وأنت تكتب منذ عشرات السنين ولم تتقاضَ ولو فلساً واحداً عما تكتبه.

فقلت لها: وهل من يفعل الخير ينتظر أجراً، ألا تذكرين معي قول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جَوَازِيَهُ .... لا يذهب العُرْف بين اللهِ والناس.

قالت: لا بل أذكر قول البارودي: ذاك عصر الرسالات وذا عصرُ

فقلت لها: وما الذي تريدين مني إذن.

قالت: لقد دمرت صحتك، هلا نظرت في المرآة ورأيت حدقتي عينيك وقد أصبحتا سوداوين من كثرة القراءة والكتابة.

قلت: إنني أخشى على عينيّ من الركود ولا أخشى عليها من القراءة، فإن تصبح سوداء بفعل القراءة خير من أن تترهّل من الخمول والكسل.

قالت: ولكن كثير من الناس يكتبون؟

قلت: وهل يمنعني ذلك من الكتابة، أم أن وجودهم يغني عن وجودي، فلكل إنسان ثغرة لا يملأها غيره، ثم إن هناك من يكتب وينتج شيئاً، وهناك من يكتب كلاماً كأيّ كلام.

قالت: وهل تعتقد أن جيلاً مثقفاً سيكون لنا في النهاية.

قلت: ما أكثر المثقفين في بلدنا، ولكننا بحاجة أن نعوّدهم على الكلام، فهم يتكلمون في مجالات عملهم ولا يُصَدِّرون ثقافتهم للآخرين.

قالت: وهل الثقافة بحاجة إلى تصدير.

قلت: ألا تذكرين معي جملة مارون عبود المشهورة التي يقول فيها: «الأدب كالتجارة ينمو ويزدهر بالأخذ والعطاء».

قالت: ولكن ما تكتبونه ليس أدباً، بل هو جمعٌ وتوثيق.

قلت: لا بل هو بابٌ من أبواب الأدب، وتوثيق للحياة العقلية والفكرية لمرحلة من المراحل التي يمر بها أهلنا في النقب. ألم تقرأي كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين الذي بحث فيه الحياة العقلية في الجاهلية وصدر الإسلام.

قالت: وهل لديّ جَلَد لأقرأ مجلداتٍ كبيرةً كتلك التي تتحدّث عنها.

قلت: حقاً ما تقولين فهناك ما يغنيك عن القراءة، فلديك ستار أكاديمي ومسلسلات الفضائيات الساقطة.

قالت: لقد خرجت بنا عن السياق، وحدتَ عن الطريق الذي بدأناه، وقد عهدتك تحافظ على وحدة الموضوع فلا تخرج بنا عن مسار حديثنا.

ثم أضافت قائلةً: ألا يحقّ لك أن تستريح لفترة نقاهة تعود بعدها وفي جعبتك الكثير.

قلت: أحاول ذلك ولكن صديقاً لي يذكّرني بجملة قالها زميلٌ آخر لنا وهي: «يجب أن يكون لك حضور أدبيّ».

قالت: وما هو الحضور الأدبيّ؟

قلت: هو أن تكتب باستمرار حتى يظل اسمك على كلّ شفة ولسان.

قالت: وهل تستطيع الصمود في هذه الحالة، وكيف تأتي بجديد في كل أسبوع.

قالت: الأمر بسيط ويمكن أن نتغلب عليه بسهولة، فعندما ينتهي ما لدينا من

بضاعة نعود لنجترّ ما كتبناه من قبل، ونقنع الناس أن الإبداع لا يبلى وكلما طال عليه العهد كلما أصبح أكثر بريقاً ولمعاناً.

قالت: وهل تنطلي هذه الحيلة على القراء وبعضهم أكثر ثقافة من الكتّاب أنفسهم.

قلت: هي لا تنطلي بطبيعة الحال ولكن هذا ما يحدث فعلاً.

قالت: وما رأيك أنت في الموضوع.

قلت: أن نكتب هذا شيء جميل، ولكن الأجمل منه أن نأتي دائماً بجديد، أن نُخْلِصَ في عملنا، وأن لا يكون النشر هو هاجسنا الوحيد، وتحضرني هنا جملة لطه حسين وإن كنت لا أحب أن أتمثل بأقواله يقول فيها: «الشهرة عدو الفنّ».

قالت: وماذا تعني هذه الجملة؟

قلت: تعني أن الكاتب عندما يلمع اسمه، ويعرفه الناس يبدأ ينشر كلاماً لا روح فيه، لأنه يعرف بأن ما يكتبه سوف يُنشر مهما كان نوعه، وهنا تفقد كتابته معناها، وتضيع نكهة أسلوبه، وتخبو مصابيح فكره وتجفّ أو تنضب ينابيع إبداعه.

قالت: إذن كيف يحافظ الكاتب على مستواه الأدبيّ، وعلى جودة أدبه ونتاجه.

قلت: تحضرني جملة كان يرددها مارون عبود كثيراً يقول فيها: «اضرب القلب فهناك النبوغ».

قالت: وكيف نضرب القلب.

قلت: ليس بالعصا بطبيعة الحال، ولكن بالنقر على جدران أحاسيسه، وبالعزف على قيثارة ألحانه، وبمناجاة ما خمد من عواطفه ومشاعره.

قالت: وكيف يمكن للكاتب أن يناجي قلبه ويهمس في أذن أحاسيسه وهو يعيش في صخبٍ لا يترك له فرصة للتأمل ولا مجالاً للتفكير.

ثم تنهدت قليلاً وسحبت نفساً عميقاً وأكملت حديثها قائلة: ضجيج أجهزة التلفاز

في غرف البيت، وصوت الموسيقى المنبعث من لعبة صاخبة على شاشة الحاسوب، وصوت الموسيقى من المسجل الذي يتربع على شرفة المطبخ، وصوت الغسالة التي تلهث مسرعة وهي تعصر الغسيل، وزمزمة الثلاجة في هذا الجو الذي يغلي من الحرّ، وصوت الهوَّاية التي تدور برأسها يمنة ويسرة فلا تأتي إلا بالهواء الساخن، وصوت الأولاد والأحفاد الذين يصخبون أو يصرخون ويملأون المكان جلبةً وضجة.

ثم نظرت إلي وكأنها أفرغت كل ما لديها، فقلت لها: لقد نسيتِ صوت نساء الأولاد وهن يصرخن على أبنائهن بملء أصواتهن، متناسيات بذلك كل قواعد الحشمة والحياء، وليتهن يقرأن ما قاله نزار قباني مدافعاً عن المرأة بقوله: «صوتها من خلف ثقب الباب عورة».

قالت: ألا ترى أننا انحرفنا عن مسارنا في تقييم الأدب والمحافظة على مستواه الإبداعي؟

قلت: نعود، والعَوْد أحمد كما يقولون. وفي هذه الحالة ليس أمام الكاتب إلا أن يصحو قبل ساعات الفجر ويكتب ما تجود به قريحته وما يدور في فلك أحلامه، وليس أمامه خيار آخر وإلا فعليه أن يهجر الكتابة أو يطلقها ثلاثاً إلى غير رجعة.

قالت: نصيحة أخيرة لو سمحت؟

قلت: ألا تعلمين أن النصيحة ببعير، ولكنني أرى أنه في مثل هذه الحالة لا بدَّ للكاتب أن يتمسك بجودة ما يكتب، وأن يحافظ على سلاسة أسلوبه وطلاوة عباراته، وأن يكتب للناس ما يحبوا أن يقرأوه له، وأن لا يأتيهم بأصدافٍ جوفاء لا روح فيها تجعلهم يزهدون في الأدب وفي كلّ من يكتب الأدب.

قالت: ألا يكفينا حتى هنا؟

قلت: يكفي.. يكفي.

وهكذا عادت ابنتي إلى غرفتها، وعدت أنا أكدّ الـذهن وأفكـر في عنـوانٍ آخـر لمقالـة أخرى جديدة.

* * *

رهط في: ٣٠ آب، ٢٠١٠

حزن الشعراء

قالت لي ابنتي: أراك اليوم حزيناً يا أبي فما الذي أحزنك؟ وما الذي كدّر عليك صفوك فبدوت شاحباً وكئيباً كأنك تحمل هموم الكون كلّه على كاهلك؟.

قلت: ربما هو حزن الشعراء يا ابنتي، فهم يحزنون إذا ما رفرفت في سماء خيالهم أفكارٌ يرون فيها الأشياء قبل وقوعها، وكأن لهم قرون استشعار يتحسّسون بها معاناة الناس وآلامهم، فيحزنون لما تراه أعين بصيرتهم، ويكتئبون ويتألمون في صمت.

قالت: ولكن ما الذي سبب لك هذا الحزن الآن، وفي هذه اللحظة بالذات؟

قلت: أحزن على نفسي، لأنني أشعر بفراغٍ موحِشٍ في روحي، ووحدةٍ قاتلة تتلوى بين ثنايا نفسي.

قالت: وكيف تكون وحيداً ونحن بجانبك، ألا يُغنيك حديثي معك عن تلك الوحدة التي تتحدّث عنها.

قلت: أنت حقاً تبعثين الأمل في نفسي، ولكن هناك وحدة في روحي لا تستطيعين الوصول إليها.

قالت: وهل للروح وحدة؟

قلت: ربما توجد لأرواح الشعراء أو المفكرين مثل هذه الوحدة، وقد توجد عند غيرهم، ولكنهم كعادتهم يذيعون على الناس كلّ شيء حتى خلجات قلوبهم.

قالت: وما سبب وحدة روحك إذن؟.

قلت: إنه حديث طويل يا ابنتي، ولكن لا ضير فسأحدثك ببعضٍ منه.

قالت: لقد شوقتني، فأفرغ وطاب أحزانك أمامي عَلّك ترتاح قليلاً، وتعود إليك البسمة التي عودتنا عليها.

قلت: منذ سنواتٍ طويلة وأنا أشعر بأنني أصارع على حلبة الأدب وحدي، وأحارب طواحين الهواء بمفردي كدون كيشوت الذي يتحدثون عنه.

قالت: ومن هو دون كيشوت هذا؟

قلت: هو بطلُ قصةٍ لكاتبٍ إسباني كتبها في بداية القرن السابع عشر، كان يرى طواحين الهواء كأنها جيش أمامه فيحاربها بسيفه ورمحه.

قالت: ما علينا منه الآن، ولكن ألم تجد صديقاً لروحك يحسّ بك ويفهمك ويرتاح لك.

قلت: أجل، ولكنني كلما وجدت رفيقاً توسمت فيه الخير، ونفثت فيه من روح الفكر والأدب، سرعان ما تنطفئ فيه تلك الجذوة، ويعود إلى سابق عهده، وتضيع السنوات التي قضيتها معه عبثاً، وكأنني كنتُ أنفخ في رماد.

قالت: ولكنك لا تستطيع أن تفرض شخصيتك على الناس، ولا أن تلقنهم أفكارك تلقيناً، فلا تعتب عليهم إذا ما سار كلٌّ منهم في حال سبيله.

قلت: أنا لا أعتب على أحد، ولكنني أهيئ جيلاً مثقفاً يحمل مشعل الفكر ونبراس العلم والمعرفة، لينير سماء هذه المنطقة ويخرجها من ديجور الظلمة والجهل التي ظلت ترزح تحتها منذ قرون طويلة.

قالت: عفواً أبي، ولكن ربما هؤلاء الذين تتحدّث عنهم لا ينزعون لما تنزع إليه، ولا يهتمون بما تهتم به، فدعهم وشأنهم فليس لك عليهم إلا بالتي هي أحسن.

قلت: إن القضية أكبر مما تتصورين يا ابنتي، إنها قصة حضارة أمة، يحق لي أن أحزن من أجلها، فكيف إذا كانت هذه الأمة هي أهلي وعشيرتي وأبناء ديني وجِلدتي.

قالت: وما دخل الكتابة بالحضارة؟

قلت: ألا تعلمين أن حضارة الأمم تقاس بعدد مثقفيها، وبالأعمال الإبداعية التي

يكتبونها، فهم يصورون الحياة العقلية والمستوى الثقافي للعصر الذي يعيشون فيه.

قالت: وهل أنت المسؤول عن هذه الأمة بأسرها، فتحمل عبئها بمفردك، أليس هناك غيرك أو مثلك ممن يشعرون بمثل شعورك؟.

قلت: إنني أعمل في هذا المجال منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ولكن ما يحزنني ويحزّ في نفسي هو أنني كلما هيأت شخصاً ليسير معي في هذا الطريق سرعان ما تخبو فيه شعلة الثقافة ويضيع في خضمّ الحياة ويصبح نسياً منسيّا.

قالت: وهل يحزنك ذلك؟

قلت: ألا يحقّ لي أن أحزن على سنواتٍ من العمر تذهب هباءً وتضيع هدراً، يضيع فيها ما أبذل، ويذوي فيها ما أزرع.

قالت: يحق لك أن تحزن ولكنك أحزنتني معك، فهيا لنخرج من هذا الجو الكئيب إلى فضاءٍ أنقى وأرحب.

قلت: وأين هو هذا الفضاء الرحيب الذي تتحدثين عنه؟

قالت: تحدثني عن مواقف طريفة حدثت معك.

قلت: سامحكِ الله يا ابنتي، وهل في حياتي البائسة مواقف طريفة، ولكن دعيني أذكر لك حكمةً كتبتها ذات مرة.

قالت: وهل أنت حكيم؟

قلت: لا، ولكن ربما تأثرت بحكمة بيدبا الفيلسوف من كليلة ودمنة، وبحكيم أورفليس من نبيّ جبران.

قالت: لا تعقد الأمور كثيراً، واذكر لنا حكمتك؟

قلت: حكمتي هي: «ما تركتُ تائهاً إلاّ أوصلته إلى المحطة، ولكنه عندما يصل يُلوّح لي بيديه ويذهب ويتركني خلفه».

قالت: أنت ما زلت تضرب على ذات الوتر، ولكن ما رأيك لو عملت لك كأساً من

القرفة؟

قلت: اعملي، ستجدينني إن شاء اللهُ من الصابرين.

غابت ابنتي قليلاً وعادت وهي تحمل كأساً من القرفة ملأت رائحتها الزكية جيوب أنفي، فقلت: جزاك الله خيراً لقد أتعبتكِ معي.

تبسمت ابنتي وهي تشعر بأنها أخرجتني بحديثها من دائرة الفراغ الروحي الذي أُحسّ به، وقالت وماذا ستفعل الآن يا أبي؟

قلت: أعود وحيداً كما كنت بالسابق، كما عادت حليمة لعادتها القديمة.

افترّت شفتاها عن بسمة خفيفة وقالت: ولكن ترفّق بنفسك قليلاً، ترفق بنفسك قليلاً، ثم غابت في فضاء الغرفة المجاورة.

* * *

رهط في: الاثنين، ٢٧ أيلول، ٢٠١٠

العنصرية هي مظهرٌ سلبيّ من مظاهر الحياة الاجتماعية، وفيها ترى مجموعةٌ معينةٌ من الناس بأنها أفضل من مجموعةٍ أو من مجموعاتٍ أخرى، وفي المعاجم العربية نجد: أن العُنْصُرية هي تعصّب المرء أو الجماعة للجنس[١]؛ أي للنوع الذي ينتمون إليه، وهي تعني كذلك الشعور بالاستعلاء والفوقيّة. وكلمة عنصر في الأساس تعني أصل الحَسَب[٢]، ومن هنا جاء تعصّب بعض الفئات لأصولها ونسبها.

وقد حارب الإسلام هذه الظاهرة ودعا إلى تركها ونبذها، لأنها من الأسباب التي تؤدي إلى التفرقة والكراهية بين أفراد المجتمع الواحد، وفي حديثٍ للنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه: "دعوها فإنها منتنة"[٣].

وقد تناولت الأمثال الشعبية صوراً مختلفة من أشكال العنصرية، وذكرت بعضاً من صفاتها ومناسباتها، ونحن هنا نركّز على صور العنصرية التي تتعلق بالمرأة وحالات الخطوبة والزواج، خاصة وأن المرأة تعتبر مصدراً لإثارة غيرة الرجل وحميّته وحسده، ولذلك نرى أن بعض العائلات كانت تكره تزويج بناتها خارج نطاق العائلة والقبيلة، وإذا ما حدث ذلك لسببٍ من الأسباب نراهم يقولون:

«النُّوَّارَة ما بتطلع من الحارة».

وهم بذلك يحاولون إلصاق صفة من النقص أو العيب إلى المرأة، لأنها لو كانت كاملةً لما تركوها لغيرهم، وغالباً ما تكون تلك المرأة طيبة وفاضلة، ولكن هذا من باب

---

(١) – المعجم الوسيط، الجزء الثاني، ص ٦٥٤.

(٢) – لسان العرب، ابن منظور، مادة (عنصر).

(٣) – صحيح البخاري، حديث رقم: (٤٩٠٥).

الغيرة والحسد وحبّ الاستحواذ والعنصرية في نهاية المطاف.

ومن الطريف أنني كنت قبل فترة في أحد الأعراس فمرّت قافلةٌ من السيارات تحمل عروساً من حَيٍ إلى حيّ آخر في نفس البلد، وكان العريس من عائلة غير عائلة العروس، فالتفت أحد الحجّاج وقال متنهداً: "يا وَلَدَاهْ"، فظننته تحمّس لموكب العرس وحنّ لعصر الفتوة والشباب، ولكن شخصاً كان يجلس بجانبي همس في أذني قائلاً: أتعرف ماذا يقصد هذا الحاج؟ قلت لا، قال: إنه يقصد أنه لو كان شاباً لمنع هذا الزواج لأن هذه العروس انتقلت لعائلة يراها دون عائلته، قلت: وكيف ذلك وهذا رجل متدين أعرفه، وقد عمّرنا معاً قبل عدة سنوات فكيف يصدر عنه ذلك، فقال صاحبي: الدين شيء، والعصبية شيء آخر.

فإذا كانت العنصرية والتعصّب تصدر عن شيوخٍ حجّوا وعمّروا وزاروا بيت الله وقبر رسوله الكريم مراتٍ ومرات، فماذا ننتظر من الشباب بعد ذلك.

وكثيراً ما يأتي الناس بأمثال أخرى لدعم أفكارهم وتأكيدها، وقد يطوّعون بعض الأمثال حتى لو قيلت في مناسباتٍ أخرى لتدعم أفكارهم بشكل أو بآخر، فنراهم يقولون:

«الحَبّة الزينة ما بتطيح من على الشجرة».

وهو يشبه المثل الذي قبله، ولكنهم لا يكتفون به بل يقولون:

«لو فيها خير ما فاتها الطير».

أما إذا اشتد الخصام بين والد العروس وأقاربها، فهناك مثلٌ فُصِّل لهذا الأمر تفصيلاً، يقولون فيه:

«ولد العم بينَزِّل العروس من القْطَار»:

والقطار: هو جَمْعٌ من الإبل يتبع بعضها بعضاً في نسق[٤]،وهو هنا موكب العروس، ويعني ذلك أنه يحقّ لابن عمها أو قريبها أن يوقف زواجها حتى لو كانت في طريقها إلى بيت زوجها، ولا يستطيع أحد أن يمنعه من ذلك حتى لو كان العريس عقد عليها عقداً شرعياً وأصبحت زوجته من الناحية الدينية والشرعية. فأين نحن من الدين والشرع؟.

وهناك من يقول المثل بصيغة أخرى وهو: ولد العم بينزِّل العروس من على ظهر الفرس، ولكن العروس كما هو معروف تُحمل في هودج على ظهر جمل ولا تحمل على ظهر فرس، مما يدل على أن هذه الصيغة انتشرت عند عائلات أقلّ بداوة من تلك التي استعملت المثل الأول.

وقد تكون للعائلة وجهة نظر أخرى في تزويج بناتها، فهي ترى أن الفتاة لو زُوِّجت لأحد أقاربها فغالباً ما يكون: "ولدها في الفَزْعِة وبنتها في الزَّرْعِة"، أما إذا زُوِّجت لشخص من غير عائلتها فقد يكون ابنها عدواً لأخواله خاصة إذا حدثت بين العائلتين حزازات أو مشاكل مهما كان نوعها، وعندها يُشكّل هذا الابن خطراً على أخواله لأنه يكون قد اكتسب الشجاعة والفروسية منهم، لأن "ثلثين الولد للخال"، وعندها يجب توخّي الحذر منه لأنه "خاف على الخال من البناخ"، و"يا ويل الخال من سيف البناخ"، ويمكن تجنب كل ذلك بعدم تزويج المرأة إلى خارج عائلتها، وبذلك يمكن المحافظة على الشجاعة وعدم تصديرها لعائلات أخرى قد تستفيد منها مستقبلاً.

ولا تقتصر العنصرية على الرجال وحسب، فالنساء أيضاً لهن نصيب من هذا الإرث الطيّب، ونرى خلال هذا السياق بعض الصور التي جسَّدت فيها المرأة أشكالاً

---

(٤) – المعجم التاريخي للغة العربية، د. محمد حسن عبد العزيز، ص ٢٨٧.

مختلفة من العنصرية، حدثت أمي رحمها الله أن رجلاً كان يعمل راعياً عند صاحب قطيعٍ كبيرٍ من المواشي والبقر، فأراد أن يتزوّج فطلب يد ابنة الرجل الذي يعمل عنده، وعندما استشارها والدها رفضت وقالت:

«رَبَّاط عِجْلي، ما بيصير رَجلي».

وأَبَت أن يكون الرجل الذي يعمل أجيراً عند والدها زوجاً لها في المستقبل، خشية أن تزدريها بعض النسوة إذا ما أقدمت على هذا الزواج غير المتكافئ اجتماعياً، وربما خشيت أن تُعَيَّر بأنها تزوجت خادماً عند أبيها، كانت هي التي تعطيه الأوامر، فكيف يصبح زوجها فيما بعد، وبما أن معظم الناس اليوم هم من العمال، فهل بقي لهذا الوضع ما يبرره؟.

وحدثني أحدهم أن شقيقةً له تزوجت من قريبٍ لها كان يعمل في فلاحة الأرض عند والدها، وكان يُسمعه كلاماً قاسياً في بعض الأحيان فيسكت مغلوباً على أمره، لأن العمل عند هذا الرجل والزوجة ابنته.

ولا يقتصر الأمر عند هذا الحدّ، فالمرأة التي ترى نفسها أكثر أصالة من غيرها تأنف أن تتزوّج من رجلٍ من عائلة ليست بمستوى عائلتها، وسمعت إحداهن تقول:

«الوِثر ما بيركب على الأصيلة».

والوثر: هو ما يوضع على ظهر الجمل كالبرذعة للحمار، وهو هنا كناية عن الرجل غير الأصيل، والأصيلة: هي الفرس الأصيلة، وهي هنا كناية عن المرأة ذات الأصول الكريمة، ومعنى المثل أن المرأة التي تنحدر من عائلة كبيرة ترفض الزواج من رجل من عائلة أقل شأناً من عائلتها، وهذا من منظور العنصرية الضيق الذي ترى فيه بعض العائلات أنها أفضل من غيرها.

وبما أن الأمثال هي مرآة صادقة تنعكس عليها سلوكيات المجتمع وحالاته

المختلفة، فقد استطاعت أمثالنا الشعبية أن تصوّر لنا تلك الحالة السلبية التي عانى منها مجتمعنا، وهي وإن كانت آثارها ما زالت باقية حتى اليوم إلا أنها في طريقها إلى الزوال.

وخلاصة القول: إن مجتمعنا ما زال يعاني من هذه الترسّبات القديمة في عصر انتشر فيه الوعي الدينيّ، وسادت فيه الثقافة الإسلامية، وعرف فيه الناس أنه لا فضل لعربيّ على أعجمي إلا بالتقوى، ولكنه ما زال مصرّاً أن يُبقي رأسه في ربقة رواسب الماضي التي هي أقرب للجاهلية منها للإسلام، فمتى يصحو لنفسه وينفض عن أكتافه غبار الجهل والتخلّف، ويعود للتمسك بهدى الحبيب المصطفى وفضائل الدين والشريعة.

* * *

رهط في: ٢٠١٠/٠١/٣

لم يستسلم التيسُ لليأس رغم أنَّ سنوات العمر قد تقدَّمت بـه بعـض الـشيء، وكـان يرى الجديان الصغيرة وهي تقفز فرحةً ومرحة بكلّ نشاطٍ وحيويّة، فقـال يخاطـب نفسه: ما الفرق بيني وبين هذه الجديان الصغيرة، أليست بضع سنين فقط؟، فلماذا لا أمرح مثلها وأقفز على هذه الهضاب الصغيرة، وأخـرج مـن دائـرة الجدّيّـة الـتي أحطتُ بها نفسي ولو لبعض حين، ألم أكن أفعـل ذلـك في شـبابي مـن قبـل، ومـاذا يمنعني أن أفعل مثلها الآن؟.

شعر التيسُ بحماسٍ شديد، وتدفقت في عروقه حرارةُ الـشباب وقوّتـه، فخطـا عـدة خطواتٍ إلى الأمام حتى وصل إلى مرتفـعٍ صـغير كانـت الجـديان الـصغيرة تتراقـص عليه قبل لحظاتٍ قليلة.

نظـر التـيسُ حولـه فـرأى الـسخلات الـصغيرة ورأى ملوسـة شـعرها، وعينيهـا الواسعتين، وحركاتها المتناسقة، وتذكّر شبابه وأيام فتوّته وكيف كانـت لَبْلَبَتُـهُ[1] تملأ المرعى، وكيف كان يغـزو علـى القطعـان الأخـرى، فيهابـه القطيـع ويُقِـرُّ لـه بالزعامة.

حاول أن يستعيدَ شبابه وأن يستردّ عافيته حتى لـو بالقليـل مـن الحركـات، لعلـه يجذب إليه الاهتمام ويستردّ شيئاً من مجده الغابر.

وقف التيسُ وقفة زهوٍ وكبرياء وشدَّ أعصابه قليلاً وتمطّى بـصلبه ولكنـه لم يُـردف أعجازاً، بل هبط بجسمه قليلاً كمن يتأهّب للوثـوب ثـم قفـز إلى أعلـى، ارتفـع عـن الأرض مقدار شِبْرٍ أو شبرين، ولكنه كان يتصوّر بأنه سيحلّق عالياً، فجاء ارتفاعـه

(١) – لسان العرب: مادة «لبب»: اللبلبة: صوتِ التُّيوس عند السِّفادِ.

أقل مما كان يتصوّر، ويبدو أن كرشه الكبيرة كانت حائلاً بينه وبين ما يريد.

حاول التيسُ مرةً أخرى، ثم مراتٍ بعدها، ولكنه في كلّ مرة كان يرتفع عن الأرض أقلّ من المرات السابقة.

شعر التيسُ بإحباطٍ شديد وبدوارٍ يلفّ رأسه وعينيه، فارتخت أعصابُه وتهدّجت أنفاسُه وتدلّى لسانُه وأخذ يلهث تعباً وإرهاقاً، ولكنه لم يستسلم رغم كلّ ذلك، فجمع شتات قوته وقفز قفزةً قوية عالية وقع منها على الأرض مغشياً عليه.

لم يعرف التيسُ ماذا جرى له بالضبط بعد أن استعاد وعيه، ففتح عينيه ببطءٍ شديد بعد أن كانت مرتخية ونظر حوله فرأى الأشياء غير واضحة المعالم وكأنَّ طبقةً من الضباب الناعم تكسوها، وكان فمه قد ارتخى وسال شيءٌ من لعابه على عُثْنُونِه[1] الطويل وعلى زَنَمَتَيْهِ[2] المتدليتين كخرزاتٍ سوداء طويلة، فسحب نَفَساً طويلاً وطَرَّقَ بملء صوته، ولكن طُرَاقَهُ كان ضعيفاً واهناً فلم يُعِرْهُ أحدٌ من القطيع اهتماماً أو يكترث ويتنبه له سوى بضع عنزاتٍ هَرِمَة نظرت إليه بعطفٍ وكأنها ترثي لحاله ثم ما لبثت أن استدارت وأخذت تقضم بعض الأعشاب الجافة التي أمامها.

سكتَ التيسُ على مضض واستند قليلاً ولكنه لم يستطع النهوض، فأخذ يجترّ شيئاً مما في جوفه على مهل، وهو ينظر إلى تلك الجديان الفتية نظرة ازدراءٍ واحتقار، وربما نظرة حَسَدٍ وغِيرة، وكأنه يقول: سوف يأتي يومها.

تمتم التيسُ بينه وبين نفسه وقال: هل هَرِمْتُ حقاً؟، وهل دَبَّ الوهنُ في عظامي

---

(١) – لسان العرب: مادة «عثن»: العثنون من اللحية: ما نبت على الذقن وتحته سفلاً.

(٢) – لسان العرب: مادة «زنم»: وزنمتا الشاة وزنمتها: هنة معلقة في حلقها تحت لحيتها، وخصَّ بعضهم به العنز.

في هذه السنوات القليلة، وتذكّر مثلاً شعبياً ينطبق عليه وعلى حاله يقول: «زي التيس اللي بيلعب مع الجديان»، فقال تباً لهذه الأمثال التي لم تترك شيئاً إلا تناولته حتى التيوس لم يسلموا من شرّها ونقدها.

ظل التيسُ في جلسته فترة من الوقت وهو يخشى النهوض خشية أن يسقط أمام الجديان الصغيرة فتسخر منه وتهزأ من تصرفاته، ولكنه تحامل على نفسه ونهض بتثاقل حتى استقامَ ووقف على قوائمه الأربع، ومكث هنيهةً يفكر في حالته ويقول: إنّ للشيخوخة هيبة ووقاراً، ولكنها تتسَتَّرُ خلف ستارٍ من الضَّعْفِ والوَهْن، وإنَّ نظراتِ الوقارِ التي نراها ما هي سوى نظرات عطفٍ ورَحْمة لمن هم أكبر منا سناً، ومَنْ هُم في عداد العجزة والقاصرين.

ابتسم التيس وهو يرى قريحته قد تفتقت عن حكمة وقال: سبحان الله، حتى الحكمة لم تأتِ إلا بلطمة.

عاد القطيعُ في نهاية اليوم إلى زريبته، وكان التيسُ يسير في آخرها، ولم يعد مرةً أخرى يُفَكِّرُ في تقليدِ الجديان أو في محاكاتها، إيماناً منه أنّ لكلّ جيلٍ ما يناسبه من تصرفاتٍ وأعمال، وعليه أن يعرفَ ذلك من نفسه وأن يحافظَ على جيله ولا يُقلّد غيره، حتى لا يكون مثار هزءٍ وسخرية.

وبعد عزيزي القاريء فإنَّ قصة هذا التيس قد تنطبق على كثيرٍ من تيوس البشر، فمتى نقنع بنصيبنا في الدنيا ونرضى به، ولا نظلّ نلهث وراء قشورٍ جوفاء فارغة تجعل المثل الشعبي ينطبق علينا، وهو يقول: «ابن آدم ما بيملأ عينه غير التراب».

* * *

رهط في ٤/١٠/٢٠٠٩م.

زوجتي الثانية[1]

كان يراودني إحساسٌ بأنني يجب أن أتزوّج من فتاةٍ مثقفة، ولكن لم أكن أعرف حينها الفرق بين المثقفة والمتحرّرة، وهذا ما تعلمته من تجاربي فيما بعد، وهو ما دفعت ثمنه غالياً من أعصابي وحتى من دموعي في بعض الأحيان.

كان الزواج من فتاةٍ مثقفة حلماً من أحلامي، وقد سعيتُ وجاهدتُ حتى حققته، فتزوجتُ فتاةً في العقد الثالث من عمرها، تحمل شهادةً جامعية وتعمل معلمةً كبيرة.

كانت حياتنا في بداية الأمر تشبه السمن على العسل، كل شيء فيها يسير إلى ما نحبّ ونهوى، ومر عامٌ حاولت خلاله إقناع زوجتي بأهمية إنجاب طفل يملأ علينا حياتنا، ولكنها رفضت بإصرار بحجة أن الولادة والرضاع سيشَوِّهان شكل صدرها فيترهّل وتخسر رشاقتها ولياقتها التي تهتم بها أكثر من أيّ شيء آخر.

ومرّت الأيام وأنا وزوجتي كلّ واحدٍ منا يعمل في مكان، ولكنها أصبحت عندما تعود من عملها تعود عصبيةً متوترة، ولا تحتمل كلاماً من أحد، وكنت أهادنها وأخفّف عنها، ولكنها كانت تلاقيني بفتور، ثم بنفورٍ وعصبية وعدم مبالاة.

وأصبحت كلما تدخل المطبخ لتعدّ الطعام تشعر بالإهانة والنقص، وترى أنه مكانٌ

---

(١) – قبل كتابة هذه المقالة بأسابيع نشرت الصحف المحلية مقالات ودعايات لجمعيات نسائية مشبوهة، تبثّ فيها سموم الفساد في المجتمع وتدعو النساء إلى تخريب بيوتهن بأيديهن، فتصدّى لهن خطباء المساجد يحذرون وينبهون، وردت الصحف بمقالات مضادة، وجاءت هذه المقالة لتحارب ظاهرة التطاول التي أعلنتها تلك الجمعيات المشبوهة، والتي قيل إن أكثر العاملات فيها قد فشلن في حياتهن الزوجية والاجتماعية، فهي بذلك ردّ على تلك الأحداث وليست تصويراً لحياتي الشخصية.

لا يليق بها وبثقافتها ومركزها الاجتماعي المرموق كمرأةٍ عاملةٍ في وظيفةٍ محترمة. وكانت عندما تدخله مضطرةً تنفخ كأنها أفعى مسعورة، وكثيراً ما كنتُ أسمع تمتماتها وهي تتلفظ بألفاظٍ نابية مسمومة، كأن تقول: «تاكل فيه السم»، أو «أوله على لسانك وآخره على سيقانك»، و«إن شاء الله ما صَرّفته»، وجمل أخرى كثيرة من هذا القبيل.

وعندما شعرتُ بضيقها وتبرّمها من إعداد الطعام أخذت أعد طعامي بنفسي، ولا انتظرها إن غابت أو حضرت، وجاءت ذات يوم ووجدت أمامي طبقاً فيه طعام أعددته لنفسي، فلم يَرُقها ما رأت، فحدجتني بنظرةٍ يتطاير منها الشرر، وقالت بعصبية: هل أعددت لي مثل ما أعددت لنفسك، قلت: لا، فأنتِ ربّة المنزل وهذه مسؤوليتك، فقالت: إذا كنت تنتظر مني أن أعدَّ لك طعامك فلتنتظر حتى تموت، فلن ترى مني بعد اليوم شيئاً من هذا.

تجاهلتها ولم أجبها رغم كل تصرفاتها احتراماً مني لها، ومحافظةً على بيتنا حتى لا ينتهي به الحال إلى الخراب.

وفي يوم آخر عدت قبلها فأعددت لنفسي شيئاً من الطعام وتناولت قليلاً منه، وعندما عادت ثارت أعصابها وأخذت تهدّد وتزمجر، فحاولت كبح جماح أعصابي كعادتي في كلّ مرة، ولكنني لم أستطع فثرتُ في وجهها وقلتُ موبخاً: إلى متى سيستمر هذا الجحيم الذي تصنعينه بيديك، لم أعد أحتمل تصرفاتك، ألا تنظرين إلى وجهك في المرآة وأنت على هذه الحالة.

هل تعرفون ماذا كان جوابها، أمسكتْ بطبق الطعام وقذفتني به فانسكب على قميصي الأبيض الجديد، وملأ صدره بالكامل، فخلعته وأنا أكاد أتميز من الغيظ وقذفتها به، فأمسكتْ به وقذفته من النافذة فوقع على التراب خارج البيت، تركتها وقلبي يدقّ بعنف ويكاد يخرج من صدري، ووقفت على النافذة أستنشق

شيئاً من الهواء لأنني كنت أشعر بضيقٍ واختناقٍ شديد، وكنتُ أستعيد شريط حياتنا المضحك وما آلت إليه أحوالنا، وعندما التفتُّ نحو قميصي الملقى على الأرض، رأيت قطاً أسود يتقدّم نحوه ويلحس ما عليه من طعام.

لم أنم في تلك الليلة في غرفة نومنا، بل نمت في غرفة الصالون وعوّدتُ نفسي بعدها أن ابتعد عنها شيئاً فشيئاً وأنام بمفردي.

ومرت فترةٌ طويلة ونحن على تلك الحالة، وحياتنا عبارة عن مجاملات باهتة فاترة، لا روح فيها ولا حياة، فلا أسألها ولا تسألني ولا يتدخّل أحدٌ منا في حياة الآخر.

وذات يوم عادت زوجتي وبرفقتها عددٌ من النسوة والفتيات، ورأيتها باسمةً منفرجة الأسارير، الأمر الذي لم أرها عليه منذ زمن، فلم أسألها من هن، ولا من أين أتين، ولكنني راقبت الوضع وتحريته بصمتٍ وهدوء، فعرفت أنهن من بلدٍ مجاور، وأنهن من النساء المتحررات، واكتشفت أيضاً أن زوجتي عضوة في فريقهن.

حاولت أن أُقنع نفسي بأن الأمر بسيط ولا يحتاج إلى كثير اهتمام، ولكن الشائعات أخذت تحوم حول زوجتي ورفيقاتها، فلم أعد أطيق البيت وأخذت ابتعد عنه شيئاً فشيئاً، وأصبحت أسهر عند الأصدقاء وأبيت عند بعضهم، حتى بدأت الشكوك والهواجس تساورهم، فسألوني عن حياتي العائلية وماذا تغيّر فيها فأخبرتهم بالحقيقة المرة.

فأشاروا عليّ أن أتزوّج، وأن أطوي صفحةَ الماضي وأبدأ حياةً جديدة تعيد إليّ ما فقدته من الهدوء والراحة والسكينة، ولكن فكرة الزواج بالنسبة لي كانت بحاجة إلى تريُّث وإلى دراسة حتى لا أعيد تكرار شريط زواجي الأول.

لم يستطع أحدُ أصدقائي كظم غيظه وهو يرى رفضي وتمنّعي، فقال بعصبية: إلى متى ستظلّ تدور من بيتٍ إلى بيت، وإلى متى سيحتملك الناس وأنت تدور كالشاة

الدوراء، فإما أن تتزوّج وإما أن تغيب عن وجوهنا، فما هكذا تتقاعس الرجال!

أصابني كلام صديقي في الصميم، وصُدمتُ منه ومما قال، وقلت في نفسي: إنه يطردني بطريقة مهذّبة، فتجلدتُ وتظاهرت بالصبر وقلت متردداً: أنا موافق، ابحثوا لي عن زوجة.

ويبدو أن قصة الزواج كانت مهيأة فلم تمضِ أيام قليلة حتى دعاني أصدقائي للذهاب معهم، وكانوا قد هيأوا كلّ شيء، ووجدت أناساً بسطاء قابلوا طلبي بالترحاب، وتّمت الخطوبة بأسهل مما تصوّرت، وانتشر الخبر بسرعةٍ كبيرة حتى وصل إلى أسماع زوجتي، فبعثت تطلب الطلاق بكلّ إصرار، وبما أن كلّ ما بيننا كان قد انتهى ولم يعد له وجود، فلم أجد مانعاً من تنفيذ رغبتها، فبعثت ورقةً بطلاقها، وكانت في تلك الفترة قد فُصلت من عملها وطُردت من وظيفتها.

ومَرّت الأيام واستأجرتُ بيتاً صغيراً وتزوجت، وكانت ثقافة زوجتي الثانية خفيفة محدودة، فأشرتُ عليها أن تكمل تعليمها في مدرسةٍ للاستكمال، ولكنها رفضت وقالت: يكفيني ما معي من عِلم، أريد أن أكون ربة بيت، أعد لك الطعام، وأكوي ملابسك وأرتّب البيت على ذوقي، أريد أن أنجب طفلاً يملأ علينا حياتنا، نُناغيه ونُرقّصه ونفرحُ به.

وصرتُ عندما أعود من العمل أجد البيت مرتباً ونظيفاً ومفروشاً، وكانت تعدّ الطعام وتنتظر عودتي فنأكل معاً، ونحكي حكاياتنا البسيطة معاً، فأنسى مشاقّ العمل وترتاح نفسي من عناء اليوم وتعبه.

وما مضى عامٌ حتى أنجبتْ طفلاً فزادت فرحتُنا به وحمدنا الله على هذه النعم التي أولانا بها، وعلى هذه السعادة الغامرة التي هيأها ويسّرها لنا.

ومرّت الأيام فالتقيت بذلك الصديق الذي ثارَ في وجهي ودفعني إلى الزواج دفعاً، فبادرني بالسؤال قائلاً: أراك على أحسن حال فماذا حدث لك، لقد تغيّر وجهُك،

وتغيّرت ابتسامتُك، وأصبح كلّ شيءٍ فيك يختلف، فأخبرته بسعادتي مع زوجتي الجديدة، وكيف قلبت حياتي رأساً على عقب، وحولت شقائي إلى سعادة وتعبي إلى راحة.

ابتسم صديقي وهو يرى سعادتي وأخبرني أن زوجتي الأولى بعد فصلها من عملها، ابتعدت عنها صديقاتها وهجرنها صاحباتها وأدبرت عنها الدنيا، فلم تعد تحتمل العيش لوحدها فتركت البيت وعادت لتعيش عند أهلها، ولم يعد يسمع بها أحد.

* * *

رهط في: ٢٠١٠/١٢/١٩

• **شركة الجباية: سَيْفٌ مُصْلَتٌ على رِقَابِ الناس.**

ما يتعرّض له الناس في هذه المدينة التي كُتب على أهلها أن يختاروا جلادهم بأيديهم أكبر بكثير مما يتصوره البعض، فشركة الجباية التي اختارتها الإدارة أصبحت سيفاً مصلتاً على رقاب الناس، فقلما تجد شخصاً لم تحجز على حسابه، أو تبعث له حجزاً على بيته، وعلى الشجرة الخضراء التي في فناء داره، وعلى حائط الطوب الذي يحيط به، والأنكى من ذلك أن تجد توقيع المحاسب الجديد يُزيِّن تلك الورقة، أي أنه حجزٌ مدعومٌ من البلدية ومن إدارتها الراشدة، أو أن «الزِّقّ فَلَت من ايد صاحبه» فلم يعد في استطاعتها أن تفعل شيئاً حيال ما يجري تحت سمعها وبصرها.

وعندما تذهبُ صاغراً للمسؤول اليهوديّ في قسم الجباية فهو يكلمك بنبرةِ المتعالي، ويقول لك: أنت تعرف أنه يوجد في مدخل البلد مركزٌ للشرطة فتوجّه له، وليس لديه شيء آخر يقوله لك غير ذلك الكلام، ويمكنك بعدها أن تخبط رأسك في أي حائط تريده، أو أن تبلِّط البحر بالتعبير الأكثر شعبية، فتعود وقد تغيرت سِحنتك وارتفع ضغطك وتظل المشكلة قائمةً كما هي، والتهديد والوعيد ورسوم الجباية التي تتراكم وتصل أحياناً إلى مبالغ أكثر من الدين نفسه.

وقد حضرت مرةً وإذا بشخص يقول لقد فرضوا عليّ رسوم جباية أكثر من الدين الذي عليّ، وامرأة أخرى تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، وآخر إلى ما لا نهاية.

وهناك واسطاتٌ تتدخل في الأمور، ولكنها واسطات عائلية، فبعض أعضاء البلدية يهبون لنجدة أقربائهم ويُسَلِّكون لهم الطريق، أما إذا لم يكن لك قريب من أعضاء

البلدية فيمكنك أن تشربها بسهولة.

وعندما سألت أحد أعضاء البلدية عن هذه المصيبة التي تتربّع على قلوب الناس، ولماذا لا تغيرها البلدية بشركة أخرى، صمت قليلاً ولم يُجب.

وسمعتُ أن هذه الشركة تبحبحت في رهط واستأجرت محلاً أوسع في الكنيون الجديد وعلى حساب مَنْ، على حساب الذين صَفَّقُوا وهلّلوا وكبّروا.

وإنني على يقين بأن الناس هنا لا يتذمرون ولا يتحركون من أماكنهم، ويؤمنون بمقولة «الكفّ ما بتناطح المخرز»، فلتظل اليد تسيل دماً من هذا المخرز حتى تتلوث وتنقطع، وحتى لو حصل ذلك، فلن نجد من يقول بصوت عالٍ: «كفى».

وحبذا لو أخذت الصحافة النزيهة دورها، ورصدت تصرفات هذه الشركة المقوتة من خلال استطلاعٍ لآراء عددٍ كبيرٍ من الناس الذين تضرروا منها، وأن تكشف ما خفي من تصرفاتها وقانونية المبالغ التي تفرضها على الناس مقابل أتعابها المزعومة، ذلك أن هذه الشركات تخشى من افتضاح أمرها إذا ما راقبتها الصحافة، ولعل ذلك يأتي بنتيجة تعود بالفائدة على الذين لا يجدون ملاذاً إلا في قولهم: «حسبي الله ونعم الوكيل».

- **المكتبة العامة: طلبتها المشتهية وأكلتها المستحية.**

المكتبة العامة حلم كلّ مثقف، وحلم طلبة العلم ومحبي المطالعة والمعرفة، وكانت من الأشياء التي سعينا لتحقيقها منذ سنواتٍ طويلة، وكانت مرتعاً خصباً للساسة المحليين ومرشحي الانتخابات على أنواعهم، فما إن تُقرع طبولُ الانتخابات حتى يتذكرونها، وينشروا في كرّاساتهم التي يتفننون في إخراجها بأنهم ينوون فتح مكتبة عامة في رهط، ولكن بمجرد انتهاء الانتخابات تتبخّر الفكرةُ كما تتبخّر وعودُهم الأخرى معها.

وظلّ الأمر كذلك منذ عام ١٩٩٣ وحتى قبل أقلّ من عام، فقلت ذات يوم للزميل موسى الحجوج: ما رأيك لو فتحنا مكتبةً عامة بمبادرةٍ شخصيةٍ منا، لا نحتاج فيها شيئاً من أحد سوى المكان الذي سنطلب من رئيس البلدية أن يوفره لنا، أعجبت الفكرة زميلي ونسّق لنا جلسةً مع رئيس البلدية وكان موعدها في التاسع من أيلول في العام ٢٠٠٩، ونظراً لأننا نعلم أن أي مشروع يُقدّم للبلدية يجب أن تكون له خطة عمل، فقد كتبنا خطةً مطبوعة مكونة من ١٣ بنداً فصّلنا فيها رؤيتنا للموضوع وأوضحنا أن المشروع بكامله نريد أن نقوم به بشكل تطوّعي سواء في جلب الكتب أو العمل أو أي شيء آخر، ولا نريد شيئاً سوى أن نحقق هذا الحلم للناس الذين انتظروه بفارغ صبر منذ سنواتٍ طويلة.

وبما أن رئيس البلدية من الشخصيات المثقفة والواعية فقد رحّب بالمشروع على الفور، وقال لنا: «اضربوا الحديد وهو حامي»، وتوجهوا الآن لمدير المركز الجماهيري وأخبروه بموافقتي على هذا المشروع، وانطلقنا من عنده فرحين وتوجهنا للمركز الجماهيري حتى لا يبرد الحديد، وكان استقبال مديره لنا كاستقبال رئيس البلدية، ولكنه قال إن ذلك يحتاج إلى بعض الوقت حتى يأخذ المشروع صفة رسمية ويكون إنشاؤه بشكلٍ قانوني يضمن له توفير الموارد والميزانيات، وبالفعل بعد شهور قليلة استطاع أن ينجز هذا العمل وأن يبدأ بإنشاء المكتبة التي عينوا لها مكتبياً بنصف وظيفة، وهكذا بدأت الفكرة مع العلم أن الرفوف كانت جاهزة من قبل وقد تبرعت بها إحدى الجمعيات في رهط.

وكان تفكيرنا أن تضمّ المكتبةُ زاويةً خاصة نوفّر لها كل ما كُتب عن النقب بشكلٍ عام من كتب ووثائق وصحف وغيرها بأي لغة كانت حتى تكون مرجعاً وأرشيفاً في نفس الوقت، ولكن مدير المكتبة كان له رأيٌ آخر فهو يرى أن التركيز يجب أن يكون على كتب الأطفال في سن الروضة والبستان، لأنه يرى أنه يجب أن ننشيء

جيلاً على حب المطالعة، فكانت أكثر الكتب التي اشتراها من نوع ليلى الحمراء والذئب وأضرابها، إضافة إلى كتب المربعات والمستطيلات التي لا يحتوي الكتاب منها على أكثر من عشر كلمات، والتي يجب أن يكون مكانها في روضات الأطفال وليس في المكتبة العامة.

شعرتُ بتقلّص دورنا بعد أن دُعينا لمعرض الكتاب في مصر وأُستُغني عنا بلطفٍ وبطريقة مهذبة، وشعرت أيضاً بموت فكرتنا في مهدها، وبأن المكتبة التي أردنا لها أن تكون صرحاً شامخاً يُؤسس ويبنى تحت إشراف أناسٍ سلخوا من عمرهم عشرات السنين في مجال العلم والمعرفة أصبحت مكتبة لا معنى لها، وسيكون مصيرها إذا ما استمرت على هذا الحال كمصير التينة الحمقاء في قصيدة إيليا أبي ماضي المعروفة.

ورغم أننا ما زلنا ننتظر أن يعرف البعض دورهم، ونعزّي أنفسنا بأننا أول من دعا وأسّس هذه المكتبة والتي ما زالت تمضغ علكتها على مهل، إلا أننا على يقين بأنها ستفتح أبوابها قريباً وربما يُدعى لها وزيرٌ يُعلن أمامه الذين يتقنون فنّ الكلام بأن المكتبة كانت مشروعاً من مشاريعهم.

- **البريد: الابن الذي لم تنجب أمه غيره.**

نبهنا في مقالٍ سابق بطريقة التفافية ومهذبة بضرورة فتح شعبة أخرى للبريد، وبيّنا أن الازدحام شديد وأنه يمكن للشخص الذي يريد دفع فاتورة الهاتف أن ينتظر ساعات طويلة قبل أن يصله الدور.

وأشرنا إلى أن العديد من السكان يذهبون للمناطق المجاورة لقضاء معاملاتهم التي يتعذر عليهم قضاؤها في بلدهم بسبب الازدحام اليوميّ الذي يؤخرهم لساعاتٍ وساعات.

ورغم أن معظم عمال البريد على خلق، وأنهم لا يدخرون وسعاً في خدمة الناس إلا أنه لا يمكن تجاهل ذلك المد السكاني الهائل الذي يجتاح البريد في كلّ يوم والذي يحتاج لأكثر من فرع واحد للبريد.

ومنذ أعوام وأنا أسعى وأدعو لفتح فرعٍ أو شُعبةٍ أخرى تخدم أهلنا في هذا البلد إلا أن تلك المساعي تضيع أدراج الرياح ولا تجد من يسمعها أو يسعى لتحقيقها.

وقد تحدثت مع مدير البريد عدة مرات وطرحت أمامه معاناة الناس والتي يراها أمامه كل يوم، والتي من نتيجتها أن بعض الشيوخ يصابون بالإغماء إضافة إلى المعاقين ومرضى السكر وغيرهم الذين لا يستطيعون الانتظار الطويل، إلا أنه قال إنه لا حاجة لفتح شُعبةٍ أخرى في هذه الأيام، لأنه يرى بأن هذه الشُعبة ستكون عبئاً على البريد وتسبب له خسارة مادية هو في غنى عنها.

وهنا يأتي دور الصحافة النزيهة لكي ترصد معاناة الناس وازدحامهم أمام بوابة هذا الفرع الذي يأبى أن يكون له أخ آخر من نوعه، وأن تصور وتستطلع رأي الناس ورأي الذين يهاجرون بأسرابهم لمواقع أخرى، وأن تحوّل توصياتها للمسؤولين عن البريد وعسى أن يكون بعد العسر يسرا.

* * *

عندما أتكلم تثور حولي ألف زوبعة.

لا شك أن أدبنا المحلي في الجنوب هو أدب وليد ناشيء، ما زال يخطو خطواته الأولى على طريق الأدب وعلى دروب الفكر، لذلك فهو بحاجة ماسّة إلى من يرعاه، ويأخذ على عاتقه النهوض به. لينمو ويتطوّر ويبلغ ما وصل إليه الأدب العربي في البلاد، وفي البلدان العربية الشقيقة.

ولكن الناس في الجنوب عامة – ولا أقول القاريء – فالقاريء يتذوق الأدب الجيّد ويقرأه بشغف، ويتابع تطوره باهتمام. الناس هنا يعتبرون الأدب من البضاعة الكاسدة، التي لا تسمن ولا تغني عن جوع، ويعتبرون الكاتب أو الشاعر رجلاً أضاع وقته في الثرثرة والحكي الفاضي.

في حين أن الحقيقة تنفي هذا القول، وتدحض هذه الحجة الباطلة، لأن الأدب يدلّ على رقيّ الأمة، وعلى المستوى الثقافي الذي وصلت إليه.

الأدب يدلّ على عقلية العصر، ويؤرخ للعصر الذي يعيش فيه، فلولا أدب المتنبي وشعره لما عرفنا دقائق حياة سيف الدولة، ولولا المعلقات لما عرفنا عن العصر الجاهلي شيئاً، ولولا أهمية الأدب لما قام سوق عكاظ ليفد إليه القاصي والداني من بُلغاء العرب وشعرائهم.

التعتيم المتعمد:

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصحف العربية التي تصدر في الشمال تفتح صدرها لإنتاجنا المتواضع، ولما تجود به قرائحنا من خواطر أو قصائد أو مقالات. بينما الصحف العربية في الجنوب على قلتها، وضحالة المادة التي تنشرها، وتخبطها الفظيع في الأخطاء اللغوية والنحوية، تتجاهل أدبنا بشكلٍ تام، وكأنما ما يحدث

هنا في واد، وهي في وادٍ آخر.

فإذا بعث أحدنا إلى صحيفةٍ هنا بمقال أو قصيدة، يضعها المحرر بعد أن يعصرها بيده الكريمة في سلة المهملات التي تفغر فاها لابتلاع مثل هذا الأدب الذي لا يروق صاحبنا لأنه لا يفهمه ولا يتذوقه.

وإن اضطر بعضهم أن ينشر القليل من هذا الأدب، فإنه يُصَغِّره حتى لا تكاد تراه إلا بمجهر، وتمر من جانبه دون أن تراه إلا إذا دققت النظر أو استعرت عيني زرقاء اليمامة.

بينما السائد هنا هو النسيان التام وعدم النشر المطلق، فالنسيان نعمة من نعم الله على البشر، فتبصروا يا أولي الألباب.

المجالس لديها ما يشغلها:

من ناحية أخرى لو أننا أردنا التطفل قليلاً، وقام أحدنا بالتوجه إلى المجلس المحليّ في بلده، أو إلى المسؤول عن قسم الثقافة في البلدية ، فانه عادة يُرَحِّب به ويعده خيراً، وأنه سيبحث الموضوع مع المسؤولين، ولكن بمجرد أن يخرج من عنده ينساه المسؤول لأنه ليس على البال أصلاً. وكأنه يقول له: "أبْشِر ولا ترْكن".

وإذا سألتهم مرةً أخرى يقولون لك: يا أخي لدينا قسم للثقافة فتوجه له فهذا الموضوع من اختصاصه، وسيعطيك الرعاية التامة.

وعندما نذهب، وهذا ما حدث بالفعل، يجلس المسؤول يشرح لنا عن نفسه وعن قدراته المختلفة أكثر من ساعتين، وفي نهاية الجلسة نخرج بخفي حنين، ولو كان حنين موجوداً يبيع الخفاف لأصبح أكبر تاجرٍ في المنطقة لأن بضاعته رائجة جداً في منطقتنا.

المصالح الشخصية:

وهناك مشكلة من نوع آخر، وهي كيفية الانتفاع من الأدباء، أو استثمارهم حسب التعبير الاقتصادي. فإذا أقام أحدهم احتفالاً انتخابياً، فهو يفضل أن يزيّنه بمزهرية شعرية ينتقيها هو حسب ذوقه ومزاجه. فيدعو شاعرنا ليكتب له قصيدة "يفجّر" فيها الحدث، ويعدّد مناقب صاحبنا وصفاته الكريمة، ويذكر مشاريعة "الخطيرة" التي ينوي القيام بها مستقبلاً لخدمة الأهل وأبناء البلد، "وغالباً ما يخدم أبناء عائلته وحمولته المقربين".

فإذا اعتذرت ولم تقم "بالواجب" فلا تنتظر منه أن يُحيّيك في الغد، أو أن يرد عليك السلام. وهنا يبرز بيت الأخطل الصغير الذي يقول فيه:

أفحتمٌ عليَّ إرسال دمعي   كلما لاحَ بارقٌ في مُحَيَّا

بينما تكون مشكلة شاعرنا مع قريحته التي تشبه الناقة التي لا تدرّ إلا إذا أحضرنا ابنها لها، وكذلك الحال بالنسبة لقريحته فهي لا تجود إلا إذا عاشت الحدث وشعرت به يتغلغل في عمق أعماقها.

الصحافة المحلية بحاجة إلى عصا غليظة:

ليس عيباً أن نعرف أخطاءنا، ومن منا لا يُخطئ فالكمال لله وحده، إنما العيب أن نترك هذه الأخطاء تسرح وتمرح كيفما شاءت، فتزيد من حدة الوضع وتشوّه الصورة التي نريدها جميلةً جذابة. فالصحف المحلية في جنوبنا الغالي تُعاني من مرض الأخطاء اللغوية والنحوية، وهي بحاجة إلى تطعيم ضد هذا الوباء، ولا بد من حقنة.

وعلى كلّ صاحب صحيفة أو مجلة أن يعهد إلى معلم للغة العربية لينقّح له المادة، ويُصحّح له الأخطاء اللغوية والنحوية قبل الطباعة، وهذا لا يدلّ على جهل صاحب

الصحيفة باللغة – حاشا لله –، إنما يدل على وعيه التام، وحرصه على صحيفته أن تخرج للناس سليمةً معافاة. كما يُحِبّ لها أن تكون.

ما قلناه ليس الكل:

إذن هذه بعض الأمور التي نخشى مواجهتها، ونتجاهلها على أهميتها، ونتحاشى الخوض فيها، وقد أكون وفقت في طرح بعضها، ولكنها ليست الكل، فهناك أمور عديدة أخرى يجب أن نواجهها بكلّ شجاعة، لنقلّل من الأخطاء التي يتخبّط فيها مجتمعُنا، لأننا نريده مجتمعاً طيباً نعتزّ ونفخر به أمام الشعوب، والله من وراء القصد.

* * *

٢٦ تموز ١٩٩٧م

خرزات عمتي

كان من هوايات عمتي رحمها الله جمع الخَرَز بأنواعه، وكان لكلّ خرزةٍ عندها اسمٌ خاصٌّ بها، ولكلٍّ منها تأثيرٌ ومفعولٌ لا تتميّز به الخرزات الأخرى.

ولا يشطح ذهنُ أحدكم إلى الخَرَز الحديث أو البلاستيكي الذي نراه في الأسواق، فالخرز الذي أُحدِّثكم عنه هو خرزٌ من نوعٍ آخر تماماً. فالأودية ومجاري السيول ومياه الأمطار بعد أن تجفّ هي المناجم الحقيقية لهذا الخرز، وكانت عمّتي عندما تَمُرُّ من الوادي الذي يفصل بين بيتها وبيتنا تبدأ عيناها تدور يمنةً ويسرة، كَمَن يبحثُ عن شيءٍ أضاعه، وهي تتفرّس الحجارةَ الصغيرة بدقّةٍ شديدة، فإذا وقعت عينُها على حجرٍ صغيرٍ أملس، تكاد يدها تسبق عينها إليه، فتلتقطه بلهفة، ثم تمسحه بطرف ثوبها لتُزيلَ بقايا الترابِ العالقِ به، وتنظر إليه بإعجاب نظرة من وجد شيئاً ثميناً، ثم تدسّه في عبِّهَا بعد أن ترتسم على ثغرها ابتسامةٌ عريضة.

ولا تتابع عمتي سيرها قبل أن تضع في عبِّهَا حفنةً من الخرزات الثمينة، وعندما تصل إلى بيتنا وقبل أن تدخله من جهة الرِّواق الغربيّ تنفحنا ببيتٍ من الشِّعْر الشعبي غالباً ما ترتجله وتُعلّق به على ما تراه أمامها، ولم يحدُث أبداً أن دخلت عمتي بيتنا دون أن يسبقها بيتٌ من الشِّعْر تنتقد به ما لا يُعجبها من تصرفاتنا. فهي ناقدةٌ في كلّ الأحوال.

وكنا صغاراً نرى في عبّ عمتي بعض النتوءات البارزة فنظنها «كَعْكَبَان»؛ وهو نوع من الحلوى في ذلك الزمان، فنجلس بجانبها ونسألها أن تُخرجَ لنا مما يوجد في عبِّهَا، ولكن ما أعظم خيبتنا عندما تمدّ عمتي يدها إلى عبِّهَا وتخرجها مليئةً بالحجارة الصغيرة الملساء وتنشرها أمامها على الفراش. وتُوجه كلامَها إلى أمي وهي تضع حجراً صغيراً في يدها وتقول: هذي سِمْلِك، أنظري إليها، ما أشدّ

بياضها، وتهزّ أمي رأسها بالإيجاب وكأنها فهمت كلَّ شيء، أما نحن فنتصوّر حبَّات الكعكبان في تلك الحجارة الصغيرة، ولكننا نسأل عمتي بشيءٍ من الفضول: ما هو السملك يا عمتي؟ وتتابع عمتي حديثها قائلة: يعني إذا زوج المرأة خطب عليها ضُرَّة، فإنه يخطب ولا يملك، أي لا تتم خطوبته بل تُفسخ قبل إتمامها وكلّ ذلك بفضل خرزة السِّمْلِك، وتضيف عمتي: إنها مُجَرَّبَة، كلّ النسوان بيلبسنها، ما في مَرَه في عيلتنا ما معها سِمْلِك !.

وتتابع شرحها وتقول: وهذي سَلْوَى اللي بتحطها في رقبتها زوجها ما بيسلاها، وهذي قُبْلَة اللي بتشيلها معها جوزها ما بيقبل على غيرها، وتقول لأمي: خذي لكِ هالخرزتين أحسن ما يتزوج عليك إسماعين، الزلام ما لهم أمان، كلهم ما لهم أمان.

ولا تنفع خرزات السملك عمتي، ولا بقية الحجارة الملساء الأخرى التي التقطتها من الوادي، فقد تزوّج عليها زوجُها وطردها لتعيش بقية عمرها في بيت أولادها.

تُرى كم من نسائنا تؤمن بك وبسحرك العجيب يا خرزة السملك!

* * *



كان أبي يُدللني كثيراً، ويصطحبني معه في كثير من المرات إلى السوق، وأراد أن يشتري ذات يوم بعض الفواكه، وكان الباعة يستبقون الوقت ويعرضون الفواكه والحمضيات قبل أوان نضوجها الطبيعي ليبيعونها بأسعار عالية.

فسأل أبي بائع الفاكهة وقال له: هل هي ناضجة وحلوة، فأخذ البائع ثمرةً منها وقال لأبي خذ ذُقها وتأكّد بنفسك، فرفض أبي وقال أنا لا آكل ذلك، ولكن بعد أن أشتري وأنقدك الثمن يحق لي أن آكل منها، وسألت أبي عن سبب امتناعه عن أكل الثمرة التي أعطاها البائع له فقال: إنها لقمة زقوم التي تهري البطون وتفتت الأمعاء، وعليك أن لا تأكلها أبداً، ألا تذكر قول الله تعالى: "إنَّ شجرةَ الزقوم طعام الأثيم، كالمُهْلِ يغلي في البطون، كغلي الحميم".

فقلت أجل أذكر يا أبي، ومن يومها وأنا لا آكل شيئاً من السوق إلاّ بعد أن أدفع ثمنه، خشية أن يكون كلقمة زقوم التي نهاني والدي عن أكلها.

* * *

ويتقدّم العمر، ويضرب الوهنُ أطنابَه، فيسير الإنسان سيراً بطيئاً متثاقلاً، يسير الإنسانُ وخلفه سِجِّلٌ حافلٌ من الأعمال التي يتذكَّرها، ويهضمها ويحاول أن يعيشها، ولكنه يقصُر دونها، وتقصُرُ همّتُهُ الواهيةُ بعد أن أثقلت السنونُ أطرافه، ورَضَّتِ الحياةُ عظامه.

ما زال قلبُه شاباً من حيث الإحساس، من حيث الشعور، ولكنه من حيث الصحة ضعيفٌ واهٍ يكاد يتوقّف عن النبض، يتمنى أن يعود الزمان، زمان القوة والشباب والفُتُوَّة، ولكنه لم يَعُد لغيره فهل يعود إليه؟ هيهات هيهات؟!.

ينظر إلى الدنيا حواليه فإذا بها ليست الدنيا التي عرفها، والتي كانت تأتيه طائعةً منقادة، فما بالها اليوم تنأى عنه وتبتعد، وتُحجم عنه كلما طلبها أو حاول التودّد إليها.

ها هم الناس ينظرون إليه نظرة رحمةٍ وإشفاق، نظرة ملؤها الرحمة والعطف لهذا الضعيف الذي لا تكاد تحمله قدماه، والذي ترتجف يداه وهو يحمل عكازته أو يده الثالثة كما يسميها ليستند عليها خشية الوقوع فيُعرّض نفسه لمزيد من الآلام والأوجاع.

وعندما ينظر إلى نفسه وإلى ماضيه العريق يقف وِقفةَ المتسائل ويسأل نفسه: ماذا تبقّى؟ فلا يجد بجانبه إلا كيساً من النايلون يحمل أدويته المتنوعة التي يُسَكّنُ بها أعاصير مرضه وزوابع أوجاعه وآلام روحه.

هذا هو الإنسان في صورته الأخيرة وفي مرحلة ضعفه وعجزه، فهل تستحق الدنيا أن نلهث وراءها مذعورين، وأن نستجدي عطفها في كلّ حينٍ وحين.

رهط في: ٢٠/ ٨ / ٢٠٠٥.

عرقوب:

مسكينٌ أنتَ يا عرقوب، لقد اعتبرك الناسُ شاذاً لأنك كنت تَعِد ولا تفي في عصرك، أما الآن وبعد موتك بدهور، فقد انقلبت الموازين، وأصبح من يعد ويفي شاذاً في هذا العصر.

ما أكثر العراقيب الذين يعيشون بيننا، في البيت، في السوق، وفي المكاتب، وفي كل مكانٍ تدخله تجد عرقوباً ينتظرك، ويملأ نفسك بآمالٍ ووعودٍ بلا رصيد: «تعال بُكرة، هات لي الوصل الفلاني، هات توصية من المكتب الفلاني، أنا مش فاضي الآن». وفي النهاية كلها من نوع وعودك يا عرقوب.

التاريخ:

مسكينٌ أنت أيها التاريخ، لأنك لا تملك أمر نفسك، ما أكثر الحقائق التي تُزيّف باسمك، وما أكثر أعمال البطولة التي تسجّلها وتحفظها لأُناسٍ لم يعملوها قَط، ومع مرور الزمن تُلصقها بأسمائهم وكأنها من أعمالهم الحقيقية. إنك تكذب علينا أيها التاريخ.

إنك أداةٌ جامدة نسجّل عليها ما شئنا من أباطيل، ونطمس بها ما شئنا من حقائق، إن أكثر ما تنقله لنا أيها التاريخ خاضع للميول والأهواء، وإننا لا نكاد نفتح صفحةً من صفحاتك إلا وتفوح منها روائح الأنانية والنرجسية، إنك لا تكتب تاريخ نفسك أيها التاريخ، ولو كتبته لكشفتَ لنا عن صفحة الزيف والرياء التي يلصقها بك بنو البشر.

إنك مغلوب على أمرك أيها التاريخ..!

الثعلب:

مسكينٌ أنت أيها الثعلب، قد تكون لئيماً، خبيثاً، ماكراً، ولكنك ضعيفٌ جبان، تفرّ وتقفز هارباً من أي حركةٍ تسمعها.

ما أكثر الذين يشبهونك من البشر، ويتّصفون بصفاتك أيها الثعلب المسكين.. ولكنهم إلى جانب هذه الصفات الجميلة، من مكرٍ وخُبثٍ ودهاء يمتلكون صفاتٍ لو امتلكتها أنت لأصبحت ملكاً لجماعة الحيوان.

إنك لا تستطيع أن تلدغ، ولا تقتل القتيل وتمشي في جنازته، وثعالبنا تستطيع ذلك بسهولةٍ ويسر، أنت لا تذرف دموعاً كاذبة لتستر بها بعض أفعالك الماكرة، أما ثعالبنا فتستعير دموعَ التماسيح.

أين منك هذه الصفات أيها الثعلب المسكين، وصدّقني لو أنّ الطبيعة حَبَتْكَ بها لأصبحتَ سيّد الغاب بلا مُنازع.

الببغاء:

مسكينٌ أنت أيها الببغاء، فبرغم جمال ريشك الأخّاذ، وألوانك الزاهية الجميلة، فإننا نستعير تقليدك دون وعيٍ أو تفكير. قد يكون في تقليدك أنت نوع من العبقرية، يعجز عنها سائر الحيوان، أما نحن فنردّد ما نسمع بطريقةٍ عمياء، دون ذرّة تأمُّل أو تفكير.

ما أكثر الشعارات التي نردّدها لا لسبب، إلا لأن زيداً من الناس كان يقولها، وما أكثر الأعمال التي نعملها مقلدين لا مبتكرين.

وصدقني أيها الببغاء إن أكثر أقوالنا وكتاباتنا، ومعظم أعمالنا وتصرفاتنا، ما هي إلا تقليد في تقليد.

وإن عَيّرك أحدٌ من الطيور بتقليدك، ففي بني البشر لك أكبر عزاء.

الحمار:

أنت مسكينٌ وصبورٌ أيها الحمار، يصفونك بالغباوة، ولكن غباوتك نابعة من طبيعتك وسليقتك الحمارية، أما نحن فنتغابى مُتَصنعين، ونَتَبَالَهُ مُتكلفين. ونلبس ثوب الغباوة بعد أن نعدم الوسيلة في نيل بعض المصالح الشخصية.

ما أكثر الذين ينتفعون من غباوتك أيها الحمار، ولكنهم لا يذكرون هذا الفضل لك، وما أكثر الأصوات التي تُشبه صوتك أيها الحمار في غلاظتها ونشازها، ولكننا نقف لها مُصفّقين.

لا تغضب بعد اليوم من غباوتك ونشاز صوتك أيها الحمار، فلك إخوانٌ من البشر يسيرون في مشارق الأرض ومغاربها. إنك لستَ وحيداً أيها الحمار، لستَ وحيداً.

* * *

كتبت في ٢٤ / ١١ / ١٩٩٤

الحرباء هو ذلك المخلوق الجميل، الذي حباه اللهُ بقدرةٍ عجيبة في تغيير لونه حسب البيئة التي يعيشُ فيها، وإن يكن الحرباء يغيِّر لونه لحماية نفسه، ولدرء الخطر عن حياته، ومن أجل الحصول على لقمة العيش أحياناً، فإن ذلك يختلف عند صديقي الحرباء، فقد عرفته قبل عامين وجمعتنا الظروف دون أن تكون لنا إرادة في ذلك.

كان شاباً وسيماً خجولاً في العقد الثالث من عمره، في نظراته بريقٌ عفويّ كأنه نوعٌ من الخَفَر، وعلى شفتيه ابتسامةٌ بريئة تدخل القلب بلا استئذان. وعندما يتكلم تنساب العباراتُ من شفتيه عذبةً رقراقة، كأنها صدى همساتٍ طريّة تُدغدغ الأذن، وتُشنّف السمع.

وفي أثناء حديثه كان يهزُّ رأسه هزّةً خفيفة إلى اليمين ليزيح خصلة الشعر الناعمة التي تتدلّى على جبينه وتكاد تُخفي عينيه العسليتين.

وكان يهتمّ بجليسه ويحاول أن يعيش مشاكله وقضاياه ويشاركه في همومه وأحزانه، ويستمع إليه مطرقاً وكأنه يهتمّ بكلّ كلمةٍ يقولها، حقاً إنه مثالٌ للشابّ الطيّب البسيط وللصديق المخلص الوفيّ.

وتشاء الظروف أن تُرخي العنان لصداقتنا لتمرح حيث شاءت ولتحلو أيامها ولياليها، فتتوثّق عُرى الوئام وأواصر المحبة، وتبدأ الزيارات العائلية بيننا حتى تتحوّل إلى نوعٍ من الروتين، ونعمل معاً بتفانٍ وإخلاص، وكان عملنا يتطلب أن نذهب إلى بعض المدن المركزية في البلاد فنقضي معاً ساعاتٍ ممتعةٍ سعيدة.

غير أنَّ إحساساً غامضاً كان يجعلني أشعر أن وراء صديقي شيئاً يقلقه، أو سراً يخفيه، فقد كنتُ ألمح في عينيه تساؤلات حائرة، ونظرات مبهمة غير مفهومة.

وكان صديقي يُشغل منصباً مهماً، ويتبوّأ مركزاً مرموقاً، وكان يقدّمني دائماً إلى أصدقائه، ويدعوني إلى حفلاته الخاصة، ويعرّف زملاءه بي، حقاً لقد أفادني بعض الفائدة.

وبعد أن عملنا معاً طيلة عامين، وانتهى العمل لظروفٍ خاصة، ظلّ صديقي في وظيفته التي كان يُجهد نفسه للبقاء فيها، ويبدو أن دوري بالنسبة له قد انتهى، فقد حصل على أمنيته وانتهى دوري بالفعل بالنسبة له، فصار يُحييني بفتور، وفي بعض الأحيان يتظاهر بأنه لا يراني، وانقطعت زياراته الروتينية تماماً.

ومرّت سنةٌ أخرى اكتشفت خلالها أن صديقي كان يمثّل عليّ دور الصديق، وأنه لم يكن سوى حرباء تتلوّن حسب المكان والزمان، وإن يكن الحرباء يغير لونه ليتقي شرّ أعدائه، فقد كان صديقي يغير لونه ليكسب بعض المصالح الشخصية، وعندما يراني الحرباء اليوم يبتسم ابتسامة مصطنعة ويلوّح لي بيده ويذهب لا يلوي على شيء.

* * *

رهط في: ١٢ / ١٢ / ١٩٩٤م.

قال لي صاحبي والليل معتكر، إني أراك منطوياً على نفسك، غارقاً في همومك، فتعال بنا نتذاكر بعض الأحاديث، ونتداول في شؤون الساعة. قلت: إني أجد متعة في الانطوائية لا تفوقها متعة، وأشعر أن الكاتب الإنجليزي شكسبير قد بلغ قمة البلاغة حينما قال: "أشعر أنني أقلّ وحدة عندما أكون لوحدي".

قال صاحبي: دعك من هذا الهذيان، وهذا التقوقع الفارغ، وحدثني عن أدبنا المحلي، فهو أحد المجالات التي تجيد الخوض فيها، وهو ربما أقرب المواضيع إلى قلبك.

قلت: وأيّ أدبٍ تقصد ؟

قال: الأدب الذي ينتجه أدباؤنا من الجنوب وتفرزه قرائح أبنائنا من النقب.

قلت: نعم، لنا أدب جنوبي وليد، ما زال يخطو خطواته الأولى، وأتمنى أن ينمو ويزدهر، ولكن هناك أدب من نوع آخر، بدأ يظهر على الساحة، ألم تسمع به ؟

قال مستغرباً: وما هو هذا الأدب ؟

قلت: ألا تذكر معي قصة الجمل والطرمبيل الذي لحمه من الكاوشوك وعظامه براغي؟

وهنا لم يتمالك صاحبي نفسه وبدأ يقهقه بصوتٍ عال.

قلت: لا تضحك يا صاحبي، هذا هو الأدب الذي نقرأه الآن في الصحف. فهو يحدثنا عن الناقة، والبُطنان، والوِثر، والهودج، وكل ما استعمله السلف في الأزمان الغابرة.

قال: وماذا يضيرك من ذلك ؟

قلت: يضيرني انه يكتب "يضحك" بالظاء، "وبعيدا " بالنون، ويعيدنا إلى عصر السجع الممقوت الذي قضى نحبه في بداية هذا القرن.

قال: هذا رأيك فعبر عنه كيف شئت، ولكن هل لك ما تقوله حول صحافتنا المحلية؟

قلت: أجل، أجل، ما أكثر الصحف المحلية التي ظهرت في بلدنا، وما أكثر الضجة التي أثارتها حول نفسها، ولكنها كانت صحفاً دعائية، أشبه بالمناشير منها بالصحف، فهي تظهر لإبراز رأيٍ معين، أو لتضخيم فكرة معينة، ثم لا تلبث أن تذوي كشمعة قديمة بجانب الموقد.

قال: وما رأيك في الأدباء والشعراء ؟

قلت: نعم، إنهم يشبهون السلعة الكاسدة التي لا تجد من ينظر إليها، أو يلتفت لها، أو يشبهون الوردة الذابلة التي ذهب أريجها، فسقطت على الطريق، وداستها الأقدام السائرة، دون أن تحسَّ بها، أو تشعر بوجودها، إنهم ينتظرون لفتة محبة من سيف الدولة، ولكن هيهات فأبو فراسٍ يقف بالمرصاد.

قال: وماذا يعني لك ذلك ؟

قلت: يعني لي أننا نعيش في ليلٍ فكريٍ مطبق، لا أدري متى تشرق شمسه، وفي عصر يرى في المفكرين فئة هامشية ثرثارة، لا حول لها ولا قوة، ولا عمل لها إلا الثرثرة الفارغة، والكلام الأجوف المقيت.

قال: أراني بحديثي قد أخرجتك من انطوائيتك ؟

قلت: وليتك لم تفعل ذلك، فقد فتحت عليّ جروحاً، قد يمر وقتٌ طويل قبل أن تلتئم.

* * *

١٩٩٤/٩/٢

استيقظ السندباد من نومه بعد سباتٍ طويل وشعرَ بتثاقلٍ في أعضائه وارتخاءٍ في مفاصله ودعا إليه حاشيته وقال: لا بدَّ من رحلةٍ ثامنة نستعيدُ فيها نشاطنا، ونُجدّد أعمالنا وتجارتنا. وأضاف: لقد اشتاقت نفسي لركوب الأهوال وامتطاء المخاطر ورؤية غرائب البلدان وعجائب الأمم. وبعد عدة أيام عاد إليه الحاجب وأخبره بأنه استأجر سفينةً وهيأ البضائع وحمّل النفيس منها، مما غلى ثمنه، وخَفَّ حمله ودعاه إلى النزول إلى حجرته في السفينة ليبدأوا رحلتهم الثامنة.

ولكن ما أعظم دهشة السندباد حينما رأى أمامه سفينةً ضخمة بلا صاري ولا شراع، فدعا إليه ربّان السفينة واستوضح منه هذا الأمر، فقال الربان: لقد انقرضت السفن الشراعية منذ زمنٍ بعيد، لأنها لم تعُد تصلُح لمتطلبات العصر وحلّت محلّها هذه السفن الثقيلة التي تسير على ما يسمى "بالوقود النووي"، ولأن رحلتنا طويلة وشاقّة فهي بحاجة إلى سفينةٍ من هذا النوع تقطع بنا حاجز الزمن.

لم يفهم السندباد كثيراً من هذه العبارات، وأومأ برأسه إيماءة الموافقة؛ وبعد رحلةٍ دامت بضعة أيام لم يشعر السندباد خلالها بتلك المشقة التي كان يشعر بها في رحلاته السابقة من مصارعة الرياح والعواصف، ومجابهة الأمواج العاتية، وانكسار الصاري وتمزّق الشراع وغيرها.

رست السفينة على شاطئٍ أنيق، هادئ الأمواج تمخره الزوارقُ الصغيرة زاهية الألوان؛ فنزل السندباد مع حاشيته وأنزل بضاعته وسأل عن مكان الجِمَال والعربات التي تجرها الخيول كي يحمّل بضاعته إلى أقرب بلدٍ عربي.

غيّر أن المترجم أخبره أن هذه الأشياء لم تعد موجودة لأن هناك أجهزة تسير بمحركاتٍ تلقائية حلّت محلّها. استغرب السندباد هذه المشاهد، وما تغيّر من

أحوال الدنيا والناس، وقال بينه وبين نفسه: "يبدو أنني نمت نوماً طويلاً، أو ربما أنني في حُلمٍ غريب".

وبعد ساعات قليلة توقفت الشاحنات ونزل السندباد وخدمه وحاشيته في مكانٍ فسيح وعرضوا بضائعهم: من أقمشةٍ حريرية وعباءاتٍ مذهبّة الحواشي وسيوف هندية مزركشة الأغمدة وبضائع أخرى عديدة.

انتشر الخبر في أنحاء المدينة وفي المناطق المجاورة لها عن هذا التاجر الكبير، فتوافد الناس من كلّ حدبٍ وصوب، رجالاً ونساءً وأطفالاً. دُهش السندباد من شكل الناس وأزيائهم وسأل رفيقه: "أين نحن الآن ؟ أم ترانا في حُلمٍ مزعجٍ غريب ؟" قال رفيقه: "لا بل أنت في غاية اليقظة ومنتهى الصحو".

– إذن ما هذه المشاهد وما هذه الأزياء؟

– أي مشاهد تقصد؟

– أترى هذه المرأة، وأشار بإصبعه نحوها، إنها تلبس قميصاً لا يغطّي نصف بطنها.

– وماذا بعد؟

– وهذه المرأة التي تلبس ثوباً مشقوقاً من جانبه من الخصر إلى الأرض، إن ساقها تبدو عارية تماماً.

وضرب السندباد كفاً بكفّ وقال: "يا إلهي كيف يمكن لي أن أبيع بضاعتي وليست معي ملابس كالتي على تلك المرأة، والتي تكشف النّصف الأعلى من صدرها، ولا كتلك التي تكشف عن الظهر بأكمله بما فيها عظام الكتفين، والتي تبدو ناتئة كعظام حصانٍ هزيل؟ من أين لي مثل هذه الشبّاحات وهذه السروايل القصيرة التي على الرجال، والتي تجعل الرجل نصف عارٍ وكأنه إنسانٌ من العصر الحجري يأتي لتوّه؟

أين السراويل المزمّكة الفضفاضة، والثياب المحتشمة الطويلة، أين الأقنعة والخُمُر الجميلة؟ تساؤلات كثيرة كانت تدور في ذهن السندباد، جعلته يسهو لبعض حين، لكنها سرعان ما تبخرت عندما رأى الناس يتغامزون ويضحكون، ويهمسون فيما بينهم: "إنه بائع آثار وليس بائع ملابس!!!"، ولكن حدث ما لم يكن متوقعاً، فقد نجح أحد عمّال السندباد في بيع كلّ ما معه من سيوفٍ مزركشة وخناجر معقوفة، فقد كان عليها إقبال كبير، حتى أن المشترين تنافسوا على السيف الأخير، وكاد يقع بينهم الشر. كذلك نفدت جميع العباءات الصفراء ذات الحواشي المذهّبة، وباع العمّال عباءاتهم الحريرية من شدّة الطلب، استاء السندباد من هذه البلدة الغريبة، وهؤلاء النّاس الأكثر غرابة، ومن كساد تجارته، فقال لمرافقه: "يبدو أننا ضللنا الطريق، فعُد بنا إلى جزيرة الرّخ وأرض الغيلان ووادي الحيّات".

وفي اليوم التالي كان السندباد يمخر عباب البحر يتّجه نحو بلاد أخرى.

* * *

استيقظ الخليلُ بن أحمد ذات يوم وفَرَكَ عينيه عدة مرات، ونظر أمامه فانبهرت عيناه لما يرى، والتفت يمنةً ويسرة فأصابه شيء من الخبال، وعاد ليفرك عينيه من جديد ويسأل نفسه: "كم لبثت"، ولما لم يجد جواباً، نهض من مكانه وسار على قدميه بخطواتٍ وئيدة متثاقلة، بثيابه الرثة البالية وجسده الناحل الهزيل وهو لا يدري إلى أين المسير. فكل شيءٍ حوله قد تغيّر؛ المباني والناس وملابس البشر وهيئة المخلوقات وتلك العفاريت التي تسير بضجةٍ عالية من حوله جعلته يضع أصابعه في أذنيه ويقول لنفسه مرة أخرى: "أين أنا، وكم لبثت من سنين" ؟.

ولما أدرك الخليل أنه في بلادٍ غريبة، أو هكذا تبدو لناظريه على الأقل، إذ لم يعرف أحداً من الناس ولم يجد أحداً من معارفه فقرر أن يسأل أحد المارة وأن يستفسر منه عن تلك الأشياء المبهمة التي يراها أمامه لأول مرة.

وكان أول من التقى به شاب يربط عُقصةً من شعره، ويضع خرزةً ذهبية صغيرة في أذنه، وتتدلى على صدره سلسلةٌ ذهبية رفيعة، ويرتدي ملابس ضيقة تكاد تلتصق بجلده، وهو يمضغ لباناً يخرجه أحياناً ويمطّه ثم يمضغه من جديد: فسأله الخليل: يا أخا العرب، أنا غريب وتائه ها هنا، فأخبرني أين أنا وما اسم هذه البلدة، فأخبره إنها بلدة عربية، فعاد الخليل ليسأله عما جرى لأحوال الدنيا والناس وما هو هذا التغيير الذي لم يفقهه ولم يفهم شيئاً من معناه، ولما كان الشاب مستعجلاً وليس لديه الوقت الكافي للإجابة على كلّ أسئلة واستفسارات الخليل التي أدرك من خلالها أن هذا الرجل غريب الأطوار حقاً فقد اتصل من هاتفه النقّال بمراسل الجزيرة في المدينة. وطار الخبر بسرعة البرق، فتنافست الجزيرة وبعض وكالات الأنباء والتلفزة العربية الأخرى حول من يكون له سبق

النشر، أما السي إن إن فلم تشترك في المنافسة لأن الشخص عربيّ، فلم تعره اهتماماً ولم تكلِّف نفسها حتى عناء السؤال عنه لكونه عربياً لا يجذب المشاهد الغربي، ويجب طمس ذكره كما تُطمس آلاف المواقع الأثرية والمقابر العربية في بلادنا وتُسوّى بالأرض.

وفي إحدى المكتبات رأى الخليل عدة صور له أحدها في كتاب تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري تخيلها رسام اسمه أرتورو أورتس، وضحك منها الخليل لأن الصورة لم تكن تشبهه على الإطلاق، وضحك كذلك على الصورة التي تخيلها جبران وقال بينه وبين نفسه يبدو أنني شغلت الناس وأقلقتهم بهذا العِلم الذي ابتكرته.

- ورداً على سؤالٍ لأحد الأشخاص حول إمكانية إضافة العديد من البحور الجديدة قال الخليل:

لقد سميت البحور بهذا الاسم لأن كلّ واحدٍ منها ينطبق على ما لا نهاية له من شعر العرب، فهي بحور حقيقية من الشعر، أما المتداول منها فهو ما ذكرت، فذكر له السائل متبجحاً بأنه أضاف العديد من البحور الجديدة، فأوضح له الخليل بشيءٍ من الهدوء بأن البحور التي ذكرها ما هي سوى مستنقعات كتلك التي تتكون بعد سقوط الأمطار ثم لا تلبث أن تجف بعد وقتٍ قصير. وهي موجودة في الدوائر العروضية ولكنها غير متداولة في شعر العرب. ولكن السائل أكثر من اللفّ والدوران فذكر له الخليل قصته مع الطالب الذي لم يستوعب تقطيع الشعر فصرفه بلطف حيث طلب منه تقطيع بيت من الشعر يقول:

إذا لم تستطع شيئاً فدعهُ وجاوزه إلى ما تستطيع

وذكر له سائلٌ آخر أن الأخفش أضاف بحراً جديداً للشعر هو المتدارك؛ وأردف أن هذا البحر هو الذي أكسب الأخفش تلك الشهرة التي لا تقلّ عن شهرة أستاذه.

وعلم أيضاً أن عاشقة الليل نازك الملائكة كتبت كتاباً حول قضايا الشعر المعاصر بينت فيه جماليات الوتد المجموع. وبعد أن إطّلع الخليل على الكتاب أراد أن يقول لتلك الشاعرة التي حضرت المؤتمر الصحفي: أنت أفهم ذات ثديين في علم العروض كما قال النابغة من قبل للخنساء، ولكنه خجل من كلمة ثديين وسكت وقال بينه وبين نفسه: رحم الله ذلك الفيلسوف الذي قال: "أنا لم أندم قَطّ على كلام لم أقله".

ولكن أحد الجالسين أدرك ما دار في بال الخليل وقال له إن هذه الكلمة لم يعد لها أي قيمة في عصرنا بعد أن بنى نزار قباني أهراماً من الحلمات لأن أهرامات خوفو تآكلت بمرور الزمن، وأرّخ في أحد دواوينه لطفولة نهد.

ولما كان للخليل خبرة بعلم الموسيقى وعلى أساسها بنى علم العروض، أخذه مرافقه إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون وهناك استمع وشاهد آخر الصرعات الموسيقية في بلادنا ناهيك عن الكلاسيكية، ولكن أذن الخليل العربية لم تستسغ كثيراً من الأغاني المعاصرة بسبب الصخب الذي يرافقها من تلك الآلات الغربية التي تطغى عليها، وقال مراسلنا إن الخليل ضحك عندما سمع أغنية إلسح إندح إمبوه، وكذلك الشنغل بنغل. ناهيك عن أغنية النار النار النار وما سار على وتيرتها من الصراخ العصري الذي تصاحبه المؤثرات الحاسوبية المختلفة.

ولما كان الخليل كثير التساؤل فقد أثقل على مرافقيه وأتعبهم، فقرروا نقله لبيت المُسِنّين والعجزة حتى يقضي ما تبقى من أيامه بينهم، كما يقضي كثيرٌ من الآباء بقية أيامهم في انتظار ملك الموت هناك.

وما زال الخليل يضغط بإصبعه على صدغه، ويحكّ جوانب رأسه ويفكر في هذه الصحوة الغريبة التي أخرجته من هدوئه الأبدي إلى عصر الجلبة والصخب.

* * *

ملحق «أ»

الأمثال والعبارات الشعبية التي وردت في الكتاب

* * *

مصادر ومراجع

لسان العرب: ابن منظور، الطبعة الثانية، ١٩٩٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

المعجم الوسيط: الجزء الثاني، ص ٦٥٤، الطبعة الثالثة، إصدار مجمع اللغة العربية، مصر، ١٩٨٥.

المعجم التاريخي للغة العربية: د. محمد حسن عبد العزيز، ص ٢٨٧.

صحيح البخاري: الإمام البخاري، دار الفكر — لبنان، ١٩٩٤.

حكايات من الصحراء: صالح زيادنة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، مطبعة الهديل، الرام – القدس.

من الأمثال البدوية: صالح زيادنة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، المطبعة العربية الحديثة، القدس.

عبارات ومصطلحات من البادية: صالح زيادنة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، مطبعة المنار، رهط.

صحيفة أخبار النقب: صحيفة محلية تصدر أيام الثلاثاء من كلّ أسبوع وتوزع في النقب، أعداد مختلفة.

صحيفة الحدث: صحيفة محلية تصدر أيام الأربعاء من كلّ أسبوع وتوزع في النقب، أعداد مختلفة.

صدر للمؤلف:

١. **جمر ورماد**: مجموعة شعرية — صدر في ١٩٩٢م.

٢. **قافلة على الطريق**: مختارات شعرية لنخبة من الشباب الموهوب — صدر في ١٩٩٤م.

٣. **من الأمثال البدوية**: مجموعة ضخمة من الأمثال الشعبية مع شرحها، صدر في ١٩٩٧م.

٤. **أنغام حائرة:** مجموعة شعرية، صدر في آب ٢٠٠١م.

٥. **حكايات من الصحراء**: حكايات وقصص شعبية، صدر في آذار ٢٠٠٣م.

٦. **عبارات ومصطلحات من البادية**: عبارات ومصطلحات شعبية، صدر في تشرين ثانٍ ٢٠٠٥م.

٧. **المأكولات الشعبية في النقب**: كتاب توثيق للمأكولات الشعبية، صدر في آذار ٢٠٠٨م.

٨. **المرأة العربية في النقب**: كتاب توثيق لكل ما يتعلق بالمرأة العربية في النقب، صدر في آذار ٢٠٠٩م.

٩. **الغناء والموسيقى عند البدو**: توثيق للغناء الشعبي والموسيقى في منطقة النقب، صدر في آذار ٢٠١١م.

١٠. **من كل وادٍ عصا**: مقالات في التراث الشعبي والنقد الاجتماعي، صدر في نيسان ٢٠١٢م.

المحتويات

من كل وادٍ عصا

صالح زيادنة

أ. دار الهدى ع. زحالقة